أرض أرض

وقف الزمن

بقلم : الدكتور على الراعى

وقف الزمن فى قصة جمال الغيطانى الأخاذة : « أرض ـ أرض » وقف عند التاسعة والنصف . نزل صاروخ صهيونى فأصاب آلة الزمن وأوقف العقارب عند التاسعة والنصف .

ومع أن أحشاء الآلة قد خرجت فقد ظل شىء ما بداخلها يتحرك ، ويتحرك ، ثم يعود إلى الوقوف عند التاسعة والنصف !

وأصاب الصاروخ آلة البشر أيضاً . أصاب أسرة مصطفى أبو القاسم ، مدرس التعليم الابتدائى بقرية كفر عامر ـ محافظة السويس ، فأبادها . ومات آخرون . وفقد الفلاح عبد المنعم أبو العطا السمع والنطق .

وجاوز الصاروخ الحد . فأصاب المجتمع القديم فى الصميم مجتمع ما قبل ٥ يونيو . وإذا كان بعض هذا المجتمع لا يزال باقياً حتى الآن فهذا هو ظاهر الأمور فقط . أما باطنها فهو رغبة تتجمع . تحتشد . تحتج . تغلى . وتستعد لإزالة آثار العفن والتواطؤ ، والتراخى وكل ما أدى إلى النكبة ، مما يقبع فى الناس ، وأعمال الناس ، ومنشآت الناس .

والصاروخ نفسه ينظر إليه جمال الغيطانى متأملا . كأنما هو مخلوق جميل ! ينظر إليه كما نظر الشاعر وليم بليك فى قصيدة له إلى النمر ، تبرق عيناه فى الظلام . به الجمال الوحشى كله والشر الرابض كله . والأذى الذى لا دافع له .

ولكنه أيضاً رمز الإنجاز عند الأعداء . ورمز التحدى لنا . تحدى هذا الصاروخ . . هو نذير الموت لا مفر من مواجهته مرة أخرى ، بعد أن فشلت المرة الأولى فى سيناء .

والقصة توضح فى قصد فنى رائع ، وفى صور مركبة ــ تنبع من لا وعى المدرس ومن وعيه على السواء ، وتعبر عن إحساسه بمصر وإحساسه بالعالم معاً ــ توضح أن المجتمع القديم أعجز من أن يواجه تحدى الصاروخ . أيواجه بالطبيب الذى يكشف على حالة عبد المنعم بالروتين ؟ أم بالبك المأمور ، الذى يسمع شكوى المدرس مصطفى أبو

القاسم فى خليط من الإشفاق والزراية ؟ أم بالمسؤول الكبير الذى يأمر بأن يحضر الفلاح عبد المنعم « إليهم » فى غد ، ليحول إلى المستشفى ، فيهرع إليه تابعه ومعه قلم حبر جاف ، ويسجل أمراً لا رصيد له . إذا أردنا أن يعود للفلاح عبد المنعم أبو العطا سمعه ونطقه ، فعلينا أن نغير الرجال ، والأعمال ، والمنشآت . وأن تكون لنا الإرادة وأن نتسلح بالصدق .

قصة جمال الغيطانى أدخلت البهجة إلى فؤادى . هذا هو الأدب الثورى الحق ، الذى نبع من النكبة مباشرة . أدب واع ، متزن . ما بالقصة من حزن يكفى كى يخلق محيطاً . ولكن القصة ـ كالجوهرة النادرة ـ تختزنه كله فى محيطها الصغير ، وتتألق به ، وتضىء كالماسة السوداء .

حزن دفين ، متكبر ، لا يبكى لأنه لا فائدة من البكاء . ولأنه يعرف طريقاً آخر أجدى من البكاء .

وإلى جوار هذا الحزن ، حب دافق لأرض هذا البلد ، وناس هذا البلد . يتمثل فى الإشارات الكثيرة ، الدقيقة ـ التى تبدو عابرة ـ لأحوال البسطاء ، وعاداتهم ، ورغباتهم . وأفكارهم وكلها تبدى النقد وهى لا تدرى . يقول عم خليل الجرسون فى وصف ما حدث :

« وكما تعرف يا سى مصطفى ، يجىء الطيران عادة فى التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً . الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كالموظفين » .

يبتسم المرء لدى هذه الفكرة الساذجة – ربما – ولكن ما فيها من نقد لا يفوته مع ذلك .

كان من أسباب فرحى بهذه القصة ، ما تخلف لدى من إحساس عقب قراءتها بأن أيدى الشباب قد أخذت تصل إليها الرسالة الفنية أخيراً . وأن هذه الأيدى لم تكتف بتسلم الرسالة ، بل مضت بها خطوات فى سبيل التعبير الفنى الناضج عن عالم هذا الشباب .

عالم لا يدرك أبعاده الحقيقية إلا هم وحدهم . عالم يأخذ من منجزات الماضى الثورية ، ويمضى بها ليحقق المزيد من الإنجازات .

باختصار شديد ، أنا سعيد !

(روز اليوسف يناير ١٩٧١)

أرض .. أرض

نشرت فى روز اليوسف ديسمبر ١٩٧٠

فعلا ، التاسعة والنصف

كما قالوا ، أكدوا ، أنها التاسعة والنصف .

فى النصف بعد التاسعة ، هل ضحكت أنا ؟؟ هل اجتزت باب المنطقة التعليمية ؟؟ وقفت أمام حمدى أفندى أصرف المرتب ، أقول لإبراهيم أفندى شكراً بعد احتسائى فنجان القهوة ؟؟ أستنشق الشهيق ، أطرد الزفير ، لا أدرى بالضبط ، ما أعرفه ، أثق منه أننى لم أوجد معهم ، لم أقعد حول الطبلية آكل الجبن والفول أشرب الحليب من يد أمى ، فى التاسعة والنصف أول النهار ، يصل قطار الركاب إلى ضواحى المدينة

الصغيرة ، احتجزوه قليلا عند المزلقان ، يعبره رجال ونسـاء وأطفال ، التاسعة والنصف لم تتوقف حركة العمل ،باخرة تقترب من ميناء ، تزعق صفارات ، تصر عجلات ترام عند منحنى ، ويقفز طفل يبيع الكبريت فـوق السلم ، يتثاءب المسـافرون فى الـطائرات ، شـاب يغازل وامـرأة تتمنع ، تاجر يساوم ومدير يتآمر يختلس وعطور تسكب من إناء إلى إناء ، أنفـاس دخان تتبـدد ، تكتكة آلات كـاتبة، قهـوة تلون مذاق الأفـواه وموظفات ينسجن التريكو فى التاسعة والنصف يبدأ العمل فى بلاد بعيدة جداً عنا فى نصف العالم الثانى ، وتشتعل النار فى الأعشاب على جـانبى قضبان القطارات .

. . فى التاسعة والنصف مشرط طبيب يشق بطن الإنسان ويطفو كلب ميت فوق مياه الترعة القريبة من القناة فيقول جندى لا بد من إزالته لأننا نشرب من هنا وطفوه ضار ، بالضبط فى تمام التاسعة يرمى الفراغ جبلا من المتفجرات وزنه ألف ألف ألف رطل ، يخمن الرجل فى الحفر فى الدشم فى خنادق المواصلات ، الرمى فوق بور توفيق ، يؤكد آخر أنه فوق مدينة السويس نفسها ، يضربون البيوت فى تمام التاسعة والنصف .

قلب أم يرقب الأبناء لحظات الإفطار ، أمى أنا تعبر فناء البيت تحمل الماء من الزير إلى اخوتى أنا سعيد . أخوتى أنا فتحى وإبراهيم ، اخوتى

على وعادل وحسنى ، أختى فتحية ، أختى أنا ، أنا مصطفى أبو القاسم كلما سألنى شخص وأنا أدور ممسكاً بيد عبد المنعم أبو العطا ، أقول أنا مصطفى أبو القاسم من كفر عامر محافظة السويس ، وعبد المنعم هذا فلاح لا يسمع ولا يرى منذ التاسعة والنصف عندما ذهبت إلى الزقازيق ونأت المسافة بينى وبين اخوتى وأمى إلى الأبد ، أبد التاسعة والنصف المحلق فى سماء عمرى عندما طلع من هناك ، تدرك آلاته الصماء وتروسه وقلاووظه وأسلاكه وبطارياته أسماء أمى واخوتى وأوصافهم واحداً واحداً وبمقدمته الصلبة القاسية غاص فى السقف وعيدان الحطب والفراغ ما بين السقف والأرض ، الأرض .

أنا مصطفى أبو القاسم لم أسمع الدوى ولم أر الشظايا واللهب بل رأيت عموداً طويلاً أبيض مصنوعاً بعناية ودقة من أنقى أنواع الألومنيوم ، ولم أر الأرواح لحظة طلوعها ، أهالى القرية أيضاً لم يروها وسكان الزقازيق والقاهرة وطنطا وشطا وبلبيس وتمنسفيس وزوار الحسين وسيدى أحمد البدوى وأهل البر ومخلوقات البحر والنداهات والعجائز وكتبة المحاكم والطواحين ، إنما هبط ثقل مر مدبب يثقب الامعاء والأحشاء والعمر المقبل والمنقضى والآمال ، ويحرق نسمة تبشر بذهاب القيظ ، ومجىء البرد ، وأمنية لم تتم عندما لمحت الخبر فوق الجسر فى عيونهم وفى البيوت ، والطريق وفضاء أبدى ، تمهل الدم فى عروقى ، ورأيت أهل البلدة أفواهاً

وعيوناً وحزناً صامتاً لا يعرف كيف ينقل الخبر ، وأنا قضيت عمرى أروح وأجىء فوق الجسر لكننى أراه لأول مرة بأرضيته الرمادية ، وسوره الخشبى ، والحفر الصغيرة أمامه من الناحية الشرقية ولا حظت بعناية كثافة النبات على جانبى الترعة والغريب أيضاً أننى رأيت سرياً من اوز أبيض ينفض جناحيه بعد طلوعه من الماء . امرأة تمشى متمهلة تجر وراءها ماعزاً سوداء ، طفلا يمص عوداً من قصب وكلباً ينبح ودخاناً يطلع من أحد البيوت ، ورأيت اللحظة التى أمر بها الآن خارج الزمن متجمعة متصلية قوامها التوتياء وعروق سوداء رفيعة وأبر وشوك ، لحظة هى زمن قائم بذاته ، لا أول له ولا آخر بلا بداية أو نهاية ، قلت كيف أذكرها لو عشت مائة عام ، غير أننى رأيتها بعينى العمر نفسه تماماً كما أعيشها الآن ، برودة الجو وقشعريرة عنقى وطعم النحاس المجنزر واتجاه الريح الخفيفة . الباردة التى جاء لحظتها تماماً فعرفت أننى تقدمت فى العمر قدراً لا يحسب بالسنين وإن كل ما عشته قبل الآن ينتمى إلى أجيال شديدة البعد لا صلة لا علاقة لا رابطة بينى وبينها . أدركتنى بدايات الشتاء ونحن أول أغسطس ثامن شهور العام ، أقول جاءتنى بدايات الشتاء لأن سبتمبر يلى أغسطس ولا أحسبه من شهور الصيف أبداً ، أبداً ، ولماذا أحسب سبتمبر من شهور الصيف أو هواؤه أرق وأشرب ماءه فأذكر أياماً حلوة راحت منى ، صباحها فرح ، سماؤها بلا غيوم ، ناسها يضحكون ، راحوا منى راحوا ، قال

رجل عجوز هو الحاج حامد صاحب النخيل وشجر البرقوق والتفاح قال انني رجل يمكنني الصبر ، بدا لى القول سخيفاً وفض مجالس ، لم أنظر إليه ، لم أنطق حرفاً ورأيت الورق وعيدان القش فوق الأرض وتساءلت لماذا لا أذرف دمعة يبلل ملحها طرف لسانى ، لكننى لم أبك،، كأننى ودعت أمى واخوتى وأنا أعرف أننى سأرجع صباح اليوم التالى وأسمع الخبر من الحاج حامد والحاج حامد بالذات وعندما نزلت السويس من شهر وجاء عم خليل الجرسون ورأيت وجهه مهموماً ، فعلا عمره سبعون بل أعطيته من عندى أكثر ، وسألته عن الحال فقال ان حادثاً جرى اليوم وكان فظيعاً فقلت إن كل ما يجرى اليوم فظيع يا عم خليل ، هز رأسه وأسند صينية النحاس المثقلة بأكواب الشاى الفارغة وفناجين القهوة وزجاجات الكوكاكولا .

قال لا يا أستاذ ، قال ان نجاراً فى حى المثلث عاد إلى السويس بعد أن ضاق به الرزق ولم يطق التهجير أو قل انه لم يعرف كيف يعيش هناك ، رجع إلى هنا يصلح نافذة أو مقعداً ، أى عمل يحتاجه فيه أحد ، يحمل شيئاً أو ينظف مكاناً ، يعنى يلقط رزقه من هنا وهناك ، جاءنى مرة هنا وقال امسح لك القهوة وتعطينى ما فيه النصيب ، والله يا أستاذ أعطيته من جيبى ما قسم به الله ولم أسمح له فهو يقاربنى سناً ، المهم أن امرأته وأولاده الثلاثة ، بنتاً عروسة وأخرى فى العاشرة وطفلا ابن سنة على باط أمه ،

جاءوا لزيارته وباتوا ليلتين وفى صباح الثالث جاء عندى هنا ، توقف أمام هذا المطعم واشترى فولا وطعمية محشية وخبزاً وأثناء وقوفه جاء الطيران ، وكما تعرف يا سى مصطفى يجىء الطيران عادة فى التاسعة والنصف أو العاشرة صباحاً ، الظاهر أنهم يعملون بمواعيد كالموظفين جاءوا وضربوا المنطقة ، وفوق البيت ، فوق البيت بالضبط يا سى مصطفى ، كأن القنبلة نزلت بخيط من الطائرة إلى الأرض ، ألف رطل قلبت البيت ، وسكت عم خليل ، قال ان الرجل رأى أولاده يخرجون بعد أربع ساعات من الغارة فوق طاولة عيش ، نصف الأم الأعلى ، يداها يا سى مصطفى كأن الحياة بقت فيهما تضم أبناءها الثلاثة ، حتى ابنتها الكبيرة ، السليم الوحيد فيهم الطفل ، آه يا أستاذ لو رأيت عينيه إنهما مفتوحتان على آخرها ، أنا فى حياتى لم أر عينين مفتوحتين كما رأيت عينى هذا الولد ، كالبرقوق ، تراهما وأنت واقف بين الرجال فتخاف ، يا سلام ، الولد يسأل بعينيه يا سى مصطفى عن سبب موته فى أول العمر ، ولماذا جاء إلى الدنيا إذا كان موته سريعاً بهذا الشكل ، أنا فى حياتى لم أر طفلا يموت فربنا لم يعطنى ولم يأخذ منى ، لكننى رأيت موتى أنا ، لحظتى فى عينيه ، ظننت أن دموعى خلصت من زمان لكننى نحت عليهم كالمرأة أما أبوهم فلم يرد على أحد ، نزل عليه سهم أسكته ، إذا أمسكت يده يطاوعك ، تأمره بالمشى يمشى ، القعود يقعد ، لكنه لم يبك أبداً ، وعندما سمعت عم خليل قلت أتصور أن

يحدث هذا لأى إنسان فى العالم أما أمى واخوتى فلا يمكن ، وكما مرت ثلاثة أعوام رأينا فيها القنابل والطائرات وما زلنا أحياء ، فستمضى ثلاثة وثلاثون عاماً أخرى والأعمار باقية ، حتى فى أيام الدراسة ، وأنا أقيم بعيداً عنهم أصحو كل صباح فى الزقازيق وأعرف أنهم بخير وأسأل القادمين من كفر عامر أو الجناين وأخطف رجلى آخر الأسبوع لأشرب حليب الضرع الطازج ، وعندما سمعت الخبر وتغير لون الهواء والفراغ ازداد اتساعاً وخواء ، رأيت الأب النجار لا يبكى دمعة ، ورأيت شفتيه متلاصقتين شاحبتين من جلد جف وطبق الفول بين يديه لا يجد أفواهاً تمضغه .

فى تمام التاسعة والنصف ، تتدفق العربات فى الميادين ، لا يوقفها موت ولا رحيل انسان ، ألف روح آدمية عن العالم ، يضحك الناس ، يدمعون ، تتساقط نقط المياه من الزير إلى الصفيحة الموضوعة تحته ، ويد مجهولة فى مكان قصى تضغط زراً أسود اللون أحمر أو أصفر أو ربما تشد مقبضاً فيطرد من الثبات صاروخاً طوله كرجلين متمددين فوق الأرض ، يطلع بطيئاً وكأنه لا ينوى الأذى ، يعبر الأعمار والذكريات وصور الطفولة المنسية وعبير الأغانى القديمة ونداءات الليل ولهفة المسافرين ، جوفه ملىء بتروس وأسلاك متداخلة فى أنابيب مبطنة بمادة بيضاء طرية وعندما أمسك الضابط بالعامود المعدنى الأبيض قال إنه من أنقى أنواع الألومنيوم ودرجات

القلاووظ دقيقة جداً تدور حولها صامولة مسدسة رمادية والعامود يحفظ اتزان الموت المحلق .

يحفظه فى تمام التاسعة والنصف ، طال نظر الرجال الذين يرقبون ما أفعله ، ما أقوله ، سألت بحس خفيض ومالوا برؤ وسهم ليقتربوا منى ويسمعوا ولا يتبعونى كما يتصورون ثم يطلبون أن أكرر بصوت عال ما قلت ، فأكدوا أنها التاسعة والنصف ، وقلت كيف حالهم عندما ، عندما ، عندما ، ولم أنطق بل رفعت أصبعاً بيضاء كالجليد ، نظروا إلى بعضهم وحاروا ، وسمعت نهنهة امرأة لم أر وجهها ولم أعرف من هى ، وسمعتها تقول آه يا حبيبتى يا ألطاف فعرفت أن أمى ألطاف ذهبت ، وحكى الشيخ خالد فأكد أنه جرى عندما سمع الإنفجار إلى البيت ، وقال زيدان انه كان يحرث الغيط لكنه أسرع إلى البيت وجاء جنود الموقع القريب ، ورفعوا معهم الأخشاب والحجارة ولم يفكر أحد فى القنابل الزمنية ورأيت عم خليل فى المقهى ، يسكت ، تفاحة آدم فى حنجرته تتحرك من أعلى إلى أسفل ويبلع ريقه ثم يصف كيف تمددت امرأة النجار فوق طاولة العيش بلا نصف أسفل ، كأن جسمها شطر نصفين بسكين جزار ماهر ، ولابد أن صرخة أمى ان وجدت الزمن لتصرخ فى تمام التاسعة والنصف أصدق الأصوات فى وجه الزمن وأكثرها رعباً وحناناً وخوفاً ورجاء مكتوماً ووداعاً ورغبة فى بقاء الآخرين . صرخة صيحة ،

آلام أمى أصدق ما تردد منذ أن دب آدم هنا واستمع إلى الرياح والضباع وسقوط الصخر من فوق الجبل ، ومجىء الليل ثم النهار .

قال عمران انه رأى عبد المنعم يدفق دماً من وجهه كما ينساب الماء فى مجرى صغير وعبد المنعم يقف قرب البيت عندما نـزل صاروخ أرض ــ أرض ، وأنهى الحنان والرقة والعمر الطويل وتعـريشة العنب وخنـاقات الاخوة وبهجة العيد وأيام رمضان والاستيقاظ آخر الليل لتناول السحور وأكلة البورى كل ثلاثاء وصوت يطمئن على الأبناء قبل النوم وشاى المساء ترشفه أمى على مهل ، تسرح فى السواد العقيم الراقد فوق البيوت والترعة والموقع والطرق التى لا يمكن التحرك عليها بعد آخر ضوء والانفجارات البعيدة والطيران المحوِّم كالغربان فى السماء تسمع الصدى ولا ترى أجسام الألمنيوم المحلقة ونداءات العساكر وهدير عربة قريب ثم توقفه فجأة .

أمى تذكر أيامها الأولى قبل أن نأتى إليها ، ترى دخول أبى قبل مجىء الليل ومنديل به لحم وخبز يأتى به فى تمام التاسعة والنصف ، وتمنيت لو أن ما أسمعه وجه إلى شخص غيرى ، أو تردد صداه فى مكان بعيد عنا ، بعيد جـداً ، وسألت روحى بـدهشة ، بحيـرة ، بخوف ، أهـذا هـو مـوت الأحباب ؟ وعندما مررت بعامى الثامن أو التاسع عشر هل كنت أعلم أن ما جرى سيجرى ؟ وقلت آه لو يعرف الواحد ما سيأتى فى العام الثلاثين ،

ليس كل ما سوف يقع ، إنما الكبير من الأمور ، لو أعرف لأخذتهم معى إلى الزقازيق ولعدنا معاً ، نقف أمام حطام البيت وتقول أمى ، كتب لنا عمر جديد ، وتنذر الفول النابت لأولياء الله ونقضى ليلة لا ننام فيها ، غير أنهم ذهبوا وتركونى فرعاً ناحلاً جافاً يتيماً انقصف فى كل لحظة مرتين ولا تهتز شعرة فى جفن الدنيا ، ولم يقطع انسان أنفاس سيجارته .

بالضبط فى تمام التاسعة والنصف لم أقل حرفاً ولم يومىء رأسى وقال الشيخ حامد مرة أخرى ان الأعمار بيد الله وقال زيدان والله لا نتركه وحيداً ربما عمل فى نفسه حاجة وقال آخر لم أعرف وجهه مع أننى فى القرية أعرف الإنسان من بعد كبير فى الظلام ومن طريقة تردد أنفاسه حتى وشكل خطواته ، لكننى لم أميز من قال ان مصطفى سينام عندى فجاوبه آخر ، البيت أوسع عندى وحفرة المخبأ أكبر فلو حدث شىء فى الليل نزلنا كلنا وقالت جدتى نجمة وليست أم أمى أو أم أبى إنما كل عجوز هنا أقول لها يا جدة ، قالت كنت أقعد مع المرحومة كل ليلة ، زغر إليها الرجال فى العتمة لم أرهم إنما أحسست حدة نظراتهم ، نفذت إبرة محماة طويلة تفجر مرارتى وناءت عظامى بحمل الهم .

أمى الآن ، الآن ، تمام التاسعة والنصف . . مر . . مرحومة .

قلت فجأة ، خذونى إلى عبد المنعم أبو العطا ، فأخذونى .

قابلنا جندى ، قال انه من الخطر مشينا جماعة فى الظلام ربما نزلت دانة ولا يمكننا التفرق وقلت ماذا يحدث أكثر مما حدث ، وألقى أحدهم السلام ورد آخر لم أره ولم أعرفه ولم نتمهل وإنما أسرعنا وأصغيت إلى الصراصير المدسوسة فى الهيش على ضفتى الترعة ، ورأيت وجه عبد المنعم أبو العطا من شاش وقطن وقماش أبيض ، وقلت لو ، لو ، لو ان أمى أصيبت أو أحد من اخوتى أصيب لرأيته الآن كما أراه ، قال طبيب الجيش الشاب إنها جراحة أولية ولا يمكن نقله ظهر اليوم لأن الطيران قطع الطريق عدة مرات ، قلت سأذهب به إلى الزقازيق ، إلى المستشفى الأميرى ، وقال طبيب الجيش ، المستشفى هناك أكبر هل تعرف أحدا ؟ قلت أبداً ، قال إن العملية هنا تكفى الآن لكن حتى يرجع سمعه وبصره فلا بد من إمكانات أكبر لا تتوفر عندى ، قلت هل يعود سمعه وبصره يا دكتور فنظر إليه وقال محتمل والأمل كبير جداً فى رأيى ، قلت سأذهب به أنا ، قال سأرسل معك عربة الكتيبة الجيب ، فقلت له ان المرحومة لو عاشت وجرحت لأرسلت معى العربة طبعاً ، رأيت عينيه بوضوح لحظات ، ثبات حدقتيهما وهزة سريعة من رأسه ، رعشة صوته ، البقية فى حياتك ، حياتى أنا . وفى الليل أصغيت إلى بقبقة مياه مفاجئة ، انقطاعها ، رجل نائم يتأوه فى مكان قريب يتأوه متألماً من شىء أجهله ، ورمى الهاون ، ربما يموت ناس فى هذه اللحظة تماماً ، يفارقون الدنيا ، غير أنى لم أر روحاً عند الأفق

المظلم تطلع إلى السماء الممتلئة بنجوم كثيرة ورأيت نجماً كبيراً يلمع بوضوح ولو نظرت إليه الليلة التالية من نفس المكان ربما أجده أو لا أجده ، وانفلت نجم من ثقب ما فى السماء مخلفاً ذيلاً من لهب ، ذكرت اسم الله فهذه روح شريرة مطرودة وقلت من يدرى ، ربما هذه النجوم أرواح أحباب يرقبون أحوالنا غير أنى لم أرقب أمى ولا اخوتى وأثق أنهم يروننى وبحثت بلا فائدة عن لعاب أمضغ به طعاماً أحضروه إلى ، لم أتحرك ، وسمعت انفجارات قريبة ورأيت وهجاً وخطوطاً حمراء متشابكة كأن الدنيا تعجل بإنهاء كل ما تحويه وفى ندى الفجر قالوا دع واحداً منا يذهب معك قلت أبداً ولا بد أن يعود إليه السمع والبصر ليصف ما جرى ورأى تمام التاسعة والنصف وفى العربة رأيت قدمى عبد المنعم المتشققتين هو لا يملك أرضاً فى البلد ولا حتى جذع نخلة ، إنما يعمل فى أراضى الآخرين ولا ابناء له ولا أب يعرف وكدت أسأله من أبوك ؟ لكننى رأيت صممه فأحطته بذراعى واستقر العرق تحت إبطيه مالحاً ، ربما احتفظ برائحة من وقف بقربهم قبل مجىء الكائن الحديدى الطائر من الأرض وإلى الأرض .

وفى الزقازيق دخلت من باب المستشفى العمومى وطلعنا إلى طبيب شاب لا بد أنه حصل على الشهادة الإعدادية نظام الثلاث سنوات ودخل الثانوى وحصل على التوجيهية بمجموع كبير قسم علمى ، ودخل الطب وقضى به سبع سنوات ، قلت فلأسأله عما فكر فيه ورآه يوم الأربعاء فى تمام

التاسعة والنصف ، وبالتأكيد سينظر إلى بدهشة فألحقه قائلا إن أمى واخوتى السبعة . . وبدا غير راغب فى الحديث ، شرحت كيف أصيب عبد المنعم فدار حوله وهو لا يعرف أى شىء عنى أو عن عبد المنعم وأسند سماعته إلى ظهر عبد المنعم وإلى صدره وأصغى قليلا ولم أر داعياً لوضع السماعة فما الذى يشكوه فى بطنه أو ظهره ؟ آلامه واضحة لا تخفى وتأكدت أن ثمة طريقة أخرى يمكن الكشف بها على عبد المنعم أبو العطا لكن الطبيب الشاب لم يقم بها إنما أمره أن ينزل جلبابه ويبقى عبد المنعم لا يتحرك ، كرر أمره ثانية ، ويبقى عبد المنعم واقفاً ، انسان أصم أعمى ، لا يسمع ، لا يدرى ما يفعل به ولا معه أو أمامه أو وراءه ، عندما أمره مرة ثالثة بضيق بصوت عال ، قلت انه لا يسمع يا دكتور وكأنه تذكر ما قلته عندما دخلنا الحجرة فجاءت كلماته سريعة عادية ولو جاءه آخر يشكو صداعاً أو اسهالاً أو ألماً فى طرف الأصبع لكشف عليه بنفس الطريقة وضع السماعة على الظهر والبطن فى التاسعة والنصف ، ولا بد أنه يحب الممرضة التى دخلت إلينا ونظرت إلينا ثم خرجت ، كدت أقول لا تنظرى إلينا بضيق ، عبد المنعم لا يسمع ولا يرى ، قال الطبيب لابد أن تذهب به إلى مصر . رأيت وجهه وعينيه ويديه كل ما فيه ينطق بالعجلة ويقول اخرجا ، ولا بد أنه لا يسكن فى الزقازيق إنما أهله فى مصر ويجىء إلى الزقازيق فى قطار التاسعة والنصف ، يقطع المسافة فى ساعة وربع ساعة ، ربما يتعجل

إنهاء الكشف على المرضى ، ربما استطاع اللحاق بقطار الثانية إلا الثلث ليلحق فى مصر بالبنت التى يحبها فعلا لأنه يتظاهر بحب الممرضة الشابة ، ودخلت علينا ثلاث مرات وكل مرة تلتقى نظراتها ، وتنفست رائحة البنج والأدوية وبخار الغلايات الصغيرة ، والقطن المنزوع عن الجروح ، ورأيت الوجه المغلف بالقطن والشاش يدور حوله لا يدرى صاحبه أين هو ولماذا تنتقل قدماه من هنا إلى هنا ومن صاحب اليد التى تشده أو توقفه فقلت يعنى ألا يمكنك ورد بجفاء لا يمكنه وأمسكت بذراع عبد المنعم أبو العطا ومشيت به فى الممر الطويل ، على جانبيه تجلس عجائز يحملقن فى الهواء ، بحثت عن لا فتة تحمل « مدير المستشفى » ، ولقيت بجوارها ممرضاً ضخماً قال انه ليس سهلاً مقابلة سيادته وهل اختل نظام الدنيا حتى يجىء رجل يسحب مريضاً ليقابل البك المدير ، إن كبير الأطباء من الصعب مقابلته فما بالك بالمدير نفسه ؟

قلت ان عبد المنعم حالته خطيرة ، وأن اليهود أفقدوه السمع والبصر ، ولا بد من مقابلة مدير المستشفى ، قال اسمع يا جدع انت ، رأيت الإهانة وفى اللحظة نفسها داس بلاط الممر رجل أبيض يرتدى معطفاً أبيض ونظارات طبية إطاراتها مذهبة ، اقتربت منه ، فى ملامحة طيبه ، اقتربت وأفرغت فى صوتى كل ما يمكن من رجاء وتودد ومذلة حتى . . . ونظر إلى عبد المنعم وقال أعتقد أن الدكتور ممدوح على حق عندما رأى ضرورة ذهابه إلى مصر ، قلت

لكنه لم يمس رأسه ، لم يكشف عليه فعلا ، ابتسم ابتسامة مهذبة كالقطن الطبى ، آسف يا أخى فهذا من اختصاصه ، إنه مسؤول الجراحة ، وخجلت من إطالة حديثى معه ، بينما وقف عبد المنعم أبو العطا يدوس الأرض بقدمين لا حذاء لهما ، وجهه المكفن لا يدرى أين يتجه ، ودخلت الحجرة ولمست كتف الطبيب الشاب ونظرت المرضة إلى بثبات ، قلت ان اليهود أفقدوا عبد المنعم سمعه ونظره .

فصاح غاضباً ، وهل هو أول الجرحى أو آخرهم ، قلت بهدوء .

ما الذى فعلته فى التاسعة والنصف يوم الأربعاء الماضى .

ولم يدعنى أكمل إنما زعق ، امشى يا ولد نحن فى مستشفى أميرى وليس مستشفى للأمراض العقلية .

وأنا مصطفى أبو القاسم لست ولداً ، أنا مدرس من كفر عامر ومعى دبلوم معهد المعلمين وأنا الذى أزعق فى وجوه التلاميذ يا ولد وليس الطبيب ، غير أنى خفت فعبد المنعم وأنا بلا سند ، بلا غطاء ، ولو أن الطبيب كشف على عبد المنعم أبو العطا بعناية وقال اذهب إلى مصر إلى السند إلى الهند إلى آخر بلاد الدنيا لمضيت لكنه وضع السماعة على الظهر والبطن وما هذا بالكشف الصحيح فلا بد أن الأمر لم ينته هنا ، عدت إلى الممرض الضخم فزعق وأعلن أن اليوم شؤم ويراه أسود اللون فأحطت عبد المنعم بذراعى ومشينا مسرعين وربما تسببت فى ايلامه حتى أنا لا أدرى كيف أشعر بأنه تألم فى هذه اللحظة أو

توجع ، أو جاع ، أو يرغب فى جـرعة مـاء ، هى لحظة الاحتضـار نفسها مجسدة ، بينى وبينه سد لا أراه ، أبطأت خطواتى ، ولم أذهب إلى مدير المنطقة التعليمية وعملى يتصل به ويعرفنى وله نفوذ وربما يتوسط لنا أو يعرف مدير المستشفى الأميرى ، ولكننى مشيت ولم أر أحداً حتى وقفت أمام المركز وقلت البك البك المأمور موجود فقال الجندى انه بالداخل ولم يكن البـك المأمـور موجوداً إنما المأمور الذى يقصده الجندى ضابط يجلس على مكتب بنى اللون قديم الطلاء تفرشه قطعة من قماش الجوخ الأخضر وفوق شماعة خشبية علق عليها رأسه وسترته الخارجية ولمعت ثلاثة نجوم ذهبية على كتف السترة الأيمن المواجهة لنا ، قرأ ورقة . ثم ورقة أخرى ، بجانبى عبد المنعم لا يرى ولا يسمع ولا يقدر على الكلام ولو أنه تزوج وأنجب أطفالاً لصار فى بيته مناحة الآن لكنه لم يتزوج ولم ينجب وأنا لم أتزوج ولم أنجب ومن النـافذة دخلت أصوات الطريق ، نداء باعة ، خناقة أطفال صغار ، عربة مسرعة ، أصوات النهار عندما يعجل بالرحيل ، نهاية النهار تلخيص أبدى للبعد وفراق الأحبة ونهاية الأعمار فجأة قبل الأوان .

أمام الطوب المحروق والخشب المتفحم وجروح الأرض لم أصدق أن ما أراه بقايا بيتنا ، حزمة ثوم سليمة تماماً حملتها أثراً غالياً ، بقايا ملابس ضاع زهاء ألوانها ، لم أعرف أى اخوتى ارتداها ، شد أطرافها واختال بها ، حلة نحاس منبعجة ، يد ضخمة مجهولة لوتها وملأتها حفراً صغيرة ، علبة لحم محفوظة ملقاة فارغة ، أرى نفسى عندما اشتريتهـا وجلست فى الفناء أديـر

مفتاحها الصغير واخوتى يرقبوننى ، أمى تصيح من الخارج ، هل انتهيت من فتحها ؟ وجاءنى الحزن عفياً قوياً قاسياً فى موجات متتالية كهجوم انتحارى ، حزن يجفف اللبن من صدور الأمهات ويعيده إلى نهود العجائز ؛ آه من لون النهار الراحل المبتعد .

التاسعة والنصف ، خرست أصوات الدنيا ، قال الضابط لفظاً واحداً كمجىء الطيران فجأة على ارتفاع منخفض ، بوغت ، قلت أنا مصطفى أبو القاسم ، مدرس ابتدائى بقرية كفر عامر محافظة السويس ، وحتى يتأكد ويصدقنى ويثق أننى لا أكذب عليه ولا أفكر حتى فى الكذب عليه ، أخرجت بطاقتى الشخصية ، وبطاقة عضويتى فى نقابة المهن التعليمية ، وبطاقة اشتراكى فى القطار ، لم ينظرهم إنما قال ، نعم ، ورأيت أنه يطلب منى أن أحكى له كل شىء . . قلت باختصار كالعناوين .

فى التاسعة والنصف ماتت أمى واخوتى السبعة .

دارت أصابعه حول بعضها ، وبعد صمت قصير لم يرفع عينيه عنى وكأنه لا يلحظ عبد المنعم أبو العطا سأل ، أين ومتى ؟ قلت ضربهم اليهود بصاروخ أرض ـ أرض وهم يفطرون صباح الأربعاء ١٩٧٠/٨/٣ ، أمسك بطاقتى الشخصية ، تمعن فيها ، ورأيت النهار وجهاً حزيناً شاحباً ينسحب بسرعة من وراء النافذة ، يهجر الدنيا ، فقلت متمهلا ، لم أحضر إليك من أجل هذا ، إنما جئت أشكو طبيب المستشفى الأميرى ، ومال وجهه قليلا ، سألنى ألا زال

هناك فلاحون ؟؟ قلت فى الجناين والقطاع الريفى بالاسماعيلية والسويس عندنا ، سأل لماذا لم تهاجروا ، قلت إن الأرض تحتاج الرجال وكل واحد رزقه هناك وأن الأرض فى السويس مالحة ولو تركت شهراً واحداً لطلع فيها الحلفا والهيش واحتاج اصلاحها زمناً طويلاً ، قال إنه من قلة العقل أن يبقى الانسان فى مرمى الهلاك هل هذا اسمه كلام . . ولم أقل نعم ؟ ، لم أقل لا ؟ ، ورأيت إخوتى يسرعون من البيت إلى الغيط ، وشكة صغيرة تندس فى قدم أمى ، تجلس على جانب الطريق ، تحاول اخراجها ، أعود اليهم فى الاجازات مع اخوتى طلبة المدارس ، ترقبنا أمى ، يتوسط ذقنها وشم أخضر باهت كالعمر المنقضى .

سأل الضابط ، لماذا تشكو طبيب المستشفى ، قلت باختصار أيضاً ، ان عبد المنعم أبو العطا هذا أصيب وجئت أعالجه لكنه كشف على الظهر والبطن ولم يلمس عينيه أو أذنيه المصابتين فعلا وصرفنا ولا بد أن يرجع إليه سمعه وبصره لأعرف ما جرى فى التاسعة والنصف ، هز رأسه ، رنت ساعة كبيرة سبع دقات وقورة كالنعى ، نذير الليل الأسود.المقبل ، قال ارجعا فى الصباح ، ودارت الأرض بى نصف دورة أخرى وتقدمت خطوتين . . قلت أرجوك أن تتخذ اللازم لأننا درنا كثيراً ولا أعرف ماجرى له .

قال ارجعا فى الصباح ، ورأيت النهار مذبوحاً تماماً بالفئوس والمناجل والرصاص والمشارط والليل يسد الفراغ كله ، ويصبغ الأبدية ، قلت

يا سيدى هل يرضيك هل يهون عليك أن يفقد الانسان سمعه وبصره فلا يسمع ولا يرى تخيل أنك ، لكننى آسف جداً تخيل أننى أنا لا أسمع ولا أرى ، وعلى وجهه بدا شبح ابتسامة خفيفة ، قلت ارجعا فى الصباح ، ورأيت كلماته أيدياً تشدنى ، أوامر تمنعنى من التقدم ، كمامات بنج تخرس البوح فى صدرى . قطارات تدهس عبد المنعم وتدهسنى ، ولا بد أنه لا يريد ازعاج نفسه وربما ضايقه أحد قبلنا فآثر صرفنا ، وعند الباب سمعته يقول ، كلما عشنا شفنا وفى الطريق بدا الليل صارماً قاسياً ينوى الشر ، نجومه غامضة ، باهتة ، غير واضحة ، ليست كما نراها فى كفر عامر ، والبشر حولنا يمضون ، رؤوسهم إلى الأمام ، يتسمعون الهمس ، وحوش يضمرون الأذى ، آه يا عيون ترانى ولا تدرى من أنا ولا مصاب عبد المنعم أو بلواه ، عبد المنعم غارق فى ليل أبدى ، وفى صدرى دق قلبى يؤلم ضلوعى كشظية من حديد ساخن ، عبد المنعم سيرجع إلى الجناين ، لن يعمل ، لن يتسلق النخيل ، لن يجنى البرقوق ولا التفاح ، كما أنى لم أسمع صوت أمى ، ولن أشرب الشاى كل مساءمن يديها وكأنى لم أسمعها ولم أرها ولم تنجبنى ولم تأت إلى الدنيا قط وإلا . . فأين هى وكيف ذهبت مع اخوتى مرة واحدة ؟ وبعد سنوات لا أذكر ملامحها ، وشمها الأخضر ، طول قامتها ، ويضيق الناس بعبد المنعم أبو العطا ويطردونه من طريقهم وربما عطف عليه بعض الأسياد فألقموه رغيفاً وقطعة لحم فى الأعياد أو المواسم ، ومن يدرى ربما رجمه أطفال صغار يولدون الآن وصاحوا خلفه محدثين ضجة لا يسمعها أبداً ، ولا أسمع منه ما جرى ،

ما حدث ، فى تمام التاسعة والنصف ، ولو قلت لشخص ما بعد عشر سنوات أو خمسة أو سنة واحـدة حتى ان أمى ماتت واخـوتى السبعة الـطالب منهم والمزارع وأختى الوحيدة ، كلهم ذهبوا ، لنظروا إلىّ بشك وقالوا مجنـون أو يحاول استدرار عطفنا ، بـل انى لو مضيت الآن إلى المـدن الكبيرة وركبت العربات وأوقفت فى الطرقات وزعقت أن يصدقونى وأن يعالجوا عبد المنعم أبو العطا ، فسيضحك الشبان ، وتتعالى الفتيات بنظراتهن . . ويقول القوم . . حيل جديدة للتسول ، فهل يعقل أن يفقد انسان أى انسان أمه واخوته السبعة فى وقت واحد ، ولماذا بقى هو ، وإذا حكيت لهم ما قاله عم خليل عن النجار وامرأته وعياله الثلاثة لقالوا تخاريف مجنون أو عجوز عبر السبعين بسنين ، ولو قالوا أين نجارك العجوز ؟ احك ما قاله عم خليل فى العصر أصفر اللون الكئيب الذى تتردد فيه طلقات الماوزر . . لا نرى القذائف إنما نسمع صوت خروجها ثم انفجارها بعد ثوان .

قال عم خليل ان الأب كان يأتى عندى هنا ويجلس صامتاً يشـرب المعسل وسمعته ينطق لأول مرة منذ يومين عندما تلفت حوله وقال بصوت عال ، السلام عليكم ، وقال أنا سأزور الأولاد ، وذهب إلى أبنائه ، وبعد أن قرأ الفاتحة حط رأسه وأغفى بجانبهم ولم يقم ، قلت بصوت عال .

مات يا عم خليل ؟

قال ولم يحط منطق .

يرحمنا الله أجمعين . .

ولابد أن الطبيب فى الوقت ذاته ، التاسعة والنصف الآن ، يمشى فى شوارع القاهرة ، يتمدد أمام التليفزيون ، يسمع نشرة الثامنة والنصف ، أو يقف متأنقاً أمام دار السينما ، ربما ترقد ذراعه فى ذراع حسناء بيضاء ، بينما يقرأ الضابط أوراقاً أو يشرب شاياً ، آخرون فى المقاهى يتحدثون عن نجوم السينما ، المعضلات التى تقابلهم فى حل الكلمات المتقاطعة ، التوى الليل سيخاً محمى فى روحى ، الضابط لم يعطنى بطاقتى وأنا والآن ضائع مجهول الشخصية ، بلا أم ، بلا اخوة ، ولا أحد يسأل عنى ، إذا تأخرت أو تأوهت فى نومى ، أو فاجأنى كابوس ثقيل ، من يوقظنى ، لا أحد ، لا أحد ، الويل لى لن يوقظنى أحد وأموت مكتوم الأنفاس ، أما عبد المنعم فلن يسمعنى ، هو بلا بطاقة شخصية طوال عمره وتمنيت لو أشرح حالى لهذا الطويل الأصلع ، والجالسون بالمقهى الغرباء الواقفون فى شرفات الفندق ، المدينة المزدحمة ، لا عرض لها ولا طول فى أعيننا أنا وعبد المنعم أبو العطا ، أشكو لقاطع التذاكر فى الأوتوبيس والوجوه داخل إطارات . الصور والركاب والمقاعد والتلال الرملية وأسفلت العودة ، وآه لو ينطق عبد المنعم فيصف كيف طارت الشظايا بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة فى التاسعة والنصف لتضع حداً لما فات من عمرى وما هو آت .

ولم أرد سؤال من قابلونى عند الجسر أو الكوبرى وكلما عدت من إجازة أتفحص الوجوه وأسأل عن الناس لا بد أن أسمع خبرا واحدا أو اثنين وعندما ألتقى برجل أو امرأة أو طفل أقول فى عقلى . . ما زالوا على قيد الحياة ، لم أتوقف لحظة ومضيت إلى بيت قديم هجره أصحابه وجلست فيه ومعى عبد المنعم أبو العطا ، أصغى إلى أصوات الليل وضجة النهار الريفى ، أسمع الأقدام تجرى إلى الحفر ، عنف الانفجارات ، الدانات ، الهدوء ثم الأصوات البشرية الأولى تنادى بعضها ، أعرف أن أصحابها أفلتوا من هلاك أكيد وفى البداية كانوا يصيحون على ، مضى الوقت ونسونى ولم أعد أرى إلا حليمة صاحبة أمى وأخت طفولتها وعمرها ، تأتى إلينا بالطعام نيئاً وتسويه ، تغسل ثيابنا ، عبد المنعم جالس لا يقول حرفاً ، هو الصمت نفسه ، العالم بالنسبة اليه منزوع الحنجرة ، مبتور اللسان ، الدنيا حوله مطموسة الملامح ، تغرق فى سواد لا تبدده انفجارات أو ضجيج أو اندفاع عربات ، جاءنا الشيخ حامد ، أصغيت إليه ، أصغيت ، إنما انتظرت بإصرار أن تظهر أمى عند الباب وراءها اخوتى ، آه لو جاءوا ، لن أفارقهم أبداً ، أحيط بهم أيامى ولحظاتى ، معنا عبد المنعم ، ومنذ حين لم أعرف مقداره لم تحدث انفجارات ليلية أو نهارية وأصغيت إلى عربات ورجال يزعقون وصبية وآخرون يعودون إلى القرية وعرفت من حليمة أن

الضرب توقف لمدة وأن القوم لا يعرفون هل ترجع الحرب أم لا ؟ رأيت أمي تقول يجب أن تتزوج ، فقلت زاعقاً آه يا أمي ، آه يا اخوتى لو أنكم رحلتم فى زمان غير الزمان ، وبقيت أنا لعرفت كيف أرثيكم وأنشر حزنى فى العالم كله وأشرك البشر أجمعين فى البكاء ، فى النواح ، نسيت وجه الطبيب الشاب ، ملامح الضابط ، مدير المنطقة التعليمية ، نسيت شكل الصحف ، ولا أعرف العلامة المميزة لجريدة الأهرام من الأخبار وهل توجد صحف أخرى وهل أصدروا صحفاً جديدة ، وكلما سمعت الراديو سمعت الغناء والشبق المنسال بلا حساب والأحاديث وتكلف المذيعين . الأصوات تسد أذنى فلا تسمعان ، طوال الوقت حديثى إلى عبد المنعم أبو العطا ، أنظر إلى عينيه المغمضتين ، هو لا يسمع أو يرى ، إنما أثق أنه يرانى ويصغى إلىّ . وفى صباح ولا بد أن الصباح بالخارج فهذا الزحام لا يحدث ليلا ، سمعت أصوات ماكينات ، وبريق أضواء ، أهى قافلة سفن ؟؟ أين يوم الجمعة واكتمالنا حول الفطير المغموس فى اللبن ، ألصقت عينى بالباب ، رأيت أمامه رجالا كثيرين . خفت ، أنا بلا بطاقة شخصية وبينهم رجال بوليس ، نادانى الشيخ حامد ، تواريت أكثر ، دخل مسرعاً ، همس فى أذنى أن رجلا كبيراً يزور القطاع ، أخبره بحالى واعتكافى حزناً على أمى واخوتى السبعة فجاء يعزينى ، ومن الذوق بل من الواجب السلام عليه وتحيته ،

قلت أنا بلا بطاقة شخصية يا شيخ حامد ، قال مغتاظاً ، بلا فضائح . . تعال معي . . شدني إلى الفناء الخارجي ، رأيته ممتلئاً بكثيرين يرتدون قمصاناً وبنطلونات وأحذية بنية اللون وسوداء ، يلتفون حول سعادته كالجوقة حول المغني ، كل منهم يريد أن يبدو أكثر قرباً ، يظهر بجواره في الصور الملتقطة هنا ، لم أعرف وجه سعادته أو مناصبه ، المصورون يقفزون ويرفعون آلاتهم في حركات سريعة عجيبة ويميلون إلى الخلف ميلا شديداً ، ويرتكزون إلى الأرض بأذرعهم ، خفت ، ربما كسروا شيئاً في البيت ، سعادته غير مهتم بهم أو منتبه إليهم وإن بدت كل حركة ، كل وضع يقوم به ، مخصص لهم حتى يبدو في الصور بأشكال مختلفة مهينة ربما يتخيلها الآن نظر سعادته إلى .

هو جامد القوام قصير ، صافحني بنصف ذراع ممدودة .

قال البقية في حياتك ، لحظة خروج الكلمات من شفتيه تذكرت ، أسرعت إلى الداخل ، جرى ورائي الشيخ حامد ، عدت ممسكاً بذراع عبد المنعم أبو العطا ، قلت لسعادته ان الطبيب كشف على عبد المنعم من ظهره وبطنه ، ولم يهتم الضابط عندما شكوت إليه الطبيب ، وعندما رجعنا إليه لم نجده ولم يسمعنا كبير أو صغير ، كدت أذكر سحب بطاقتي الشخصية ، خفت ولم أنطق ، وقال واحد من الواقفين حوله . .

يعنى . . ماله . . ماله ؟؟ لم أنظر إليه ، وجهت حديثى إلى سعادته مباشرة ، شرحت ، أين ومتى وكيف أصيب والعلاج اللازم له ، التفت سعادته قال يا صبرى ، وأسرع شاب يمسك ورقاً وقلماً ، نعم يا أفندم ، وقال سعادته اكتب اسمه وليجىء غداً لنحوله إلى المستشفى ، همهم الواقفون مستحسنين قرار سعادته وخطا رجل غليظ الرقبة لم أره أبداً من قبل ، أشار إلى عبد المنعم أبو العطا ، وأظنه أشار ناحيتى ، صمت الجميع ، وقال الرجل وهو ما زال يشير إلينا ، هذا رمز عظيم لصلابة الفلاحين الذين تحملوا الصعاب وعاشوا هنا فى هذه القرية أياماً بالغة العنف والقسوة وبقوا رابضين فى الساحة أمام العدو

إجازة (٧٢)

نشرت فى المساء ١٩٧٠

قالت . .

ـ كل مرة لا نعرف ميعاد أجازتك . .

فى المساء الخالى من الضوضاء ، الهادىء . .

ـ سريرك لم ينم عليه أحد . .

رائحة الليل ، بقايا النهار الشتوى نفذت إليه ، ملمس الفراش ، الأثاث القديم ، عينا أمى تفحصنى ، أقول بالصمت ، بالإشارة . سليم أنا يا أمى ، لم أجرح ، لم أمت ، قالت ان هاتفاً يلح عليها منذ يومين ، يقول لها ان فريد سيصل ، من ليلتين لا تنام إلا متأخرة تترصد الخطى

فى الحارة ، فوق السلم ، رأتنى فى المنام ، آه . . يتحرك ضيق فى روحى ، ينبش حزنى ، يدُفع ضجيج سنين بعيدة إلى مسمعى ، لست غريباً ، لم أطف فى الأرض ، لم أرحل بعيداً ، لم أقض شهوراً مبحراً فى محيط ، لست غريباً ، لكن ، نظرت أمى ، أسئلة أبى ، تورم فى نفسى غربة أكرهها ، توسع هوة ، تقول إن ما كان بيننا لن يرجع ، لو أصل فلا تحار أمى ، لا تبدى اهتماماً زائداً ، لا تفكر فيما يجب أن آكله ، فرخة مذبوحة من الجمعية أو كيلو كبدة وقوانص ، يلح أبى فى الاستفسار ، أضخم له الأمان ، أنفى الخطر ، أختلق الردود لأطمئنه ، أسندت أمى ملابسى الداخلية ، رائحة القطن الذى لم يخرج من الدولاب مرة ، نظراتها الجانبية السريعة ، ارتعش الدم من وريد قلبى ، طويت بعقلى سبعين ساعة مقبلة ، رأيت اللحظة التى أقطع فيها الحارة ، أستدير عند المنحنى ، ثم أختفى عن عينى أمى . .

***

صوت مذياع الآن تمثيلية العاشرة والنصف . . أمه تسند ذقنها إلى يدها ، ترسم بيدها خطوطاً وهمية فوق الحصيرة ، لا تخرج كثيراً ، تذهب معه إلى سينما الكواكب مرة كل عامين . قال . . تصوروا . . أمى لا

تذهب إلى السينما إلا مرة كل سنتين . . قال رياض . . هنا نتذكر أنها لا تذهب إلى السينما وأنها لم تر المسرح أبداً . . وأنك لم تشتر كردان الذهب وعندما تراها تنسى . . أغمض عينيه ، الصخب فى أذنيه ليل الحرب ، حتى لحظات الهدوء ، تضج بالعنف المقبل الذى لم يبدأ بعد . . قال ليس صحيحاً . . ليس صحيحاً . . ماهر فى ركن الملجأ ، انتهى من الخدمة حالا ، لا يعبر عما فى خاطره بالكلمات ، ربما قفز فجأة ، يصيح . . ياسلام . . الله . يدركون أن أمراً غامضاً لا يعنى شيئاً بالنسبة لهم أثاره . فرح . كدر . حزن ، ذكرى بعيدة ، وجه فتاة عابر رآه مرة ، محادثة يغمض عينيه ، يتحسس وجهه ، يعود غارقاً فى صمته . .

* * *

ثم قال حسان انه ظل بالمقهى حتى الواحدة صباحاً ، لم يرنى عندما جئت ، قلت لأنى جئت من ناحية الكفر ، مررت على مسجد أم الغلام ، من نوافذه رأيت عينيها ، يسيل منهما حزن فادح ثقيل ، ربما فرحة لأنها افتقدت رأس مولانا سيدنا الحسين ، ضحكت فتاة فى شرفة علوية ، نادت امرأة . . يا أمينة . . يا ست أمينة ، ولم يجاوبها أحد . . مرت ثلاث فتيات ، وتعرف كل شىء عن بنات الجمالية ، هذه قريبة فلان ، ابنة الحاج . . يغرق فيما بيننا أدق التفاصيل عنهن . قال حسان ضاحكاً . . لا زال الحى بخير ، نصف ضحكة على وجهى قلت من خلالها ، ان مستوى

الجمال فى ارتفاع مستمر ، صاح حسان ، كأننا نبدأ الحديث فى هذه اللحظة . . أهلا . . . أهلا . .

قلت . . كيف الكلية ، قال مسرعاً انه أصيب بانفلونزا ، حادة جداً ألزمته الفراش سبعة أيام . .

ـ تصور يا فريد . . سبعة أيام أقضيها بعيداً عن الشوارع . . غمز بعينيه ، ابتسمت ، بينما الشتاء يبلل البلاط المضلع بضوئه الرمادى الصافى ، أبدبت جزعاً مسطحاً كلوح الثلج ، قال ان الآلاف ماتوا بالأنفلونزا فى روبا ، سىء أن يموت الإنسان بانفلونزا ، قال ربما نوعها هناك غير هنا . يقول ماهر بعد لحظات صمت ، ماذا لو أحصينا عدد من قتلوا دفاعاً ن مصر منذ أن نزلها الإنسان ، كم ؟ نصدر بهم بياناً يطلبه المستمعون ، تستمر إذاعته مائة عام بلا توقف ، قلت نموت ولا ندرك آخرهم . قلت عندما أعود إلى عملى فى مصلحة الآثار ، أطلب البحث عن بقاياهم . انبش الأرض من رشيد إلى فيلة ، أهدم البيوت بحثاً عن ملامحهم . قال حسان ان جماعة سكنوا فى درب الفراخة ، لهم ابنة هى الجمال بعينه ، قال ان على الجرجاوى الرجل العجوز والمحامى الشرعى القديم تزوج فجأة بعد أن ظل طول عمره أعزب ، من تظن التى تزوجته ؟ قلت لا أدرى . . قال هانم . الحلوة التى تصغره بأربعين عاماً . .

* * *

الصباح الباكر جداً ، صاف ، عذب كالحليب ، عيون الغمام الرمادى معلقة فى السماء ، فجأة . . يعلو أزيز آلات الإنذار الصغيرة ، يتلوى عبر الحفر ، طيران . . طيران فوق الجزيرة . .

إلى الحفر . . كله إلى الملاجىء . .

رأسه أقل من مستوى الأرض ، هدوء ما قبل الهلاك .

وشيش الموج .

رياض : لماذا الآن بالذات ؟ .

فريد : أنت خائف . .

رياض يغمز بعينه

فريد : ماهر من الفجر راح يفطر مع عاطف فى كفر الشيخ . .

رياض يهز رأسه ، ينهار جانب من الصمت . .

فريد : بنظراته يقول ال م ـ ط يشتبك . .

المنيا تضرب . .

رياض : اسمع . . ملعون أبوهم .

* * *

« رجل قصير عند محطة الأتوبيس ، حركاته رسالة حائرة مطولة بلا عنوان ، عيناه شقان رفيعان فى بناء أثرى قديم » .

سألنى : أى مواصلة تروح المحطة ؟

ثوان عابرة ، ياه . . هل نسيت ، أبداً قلت ٦٥ ، عندما رأيت لون العربات الأحمر ، بدا غريباً ، الرجال حول بائع الفول ، يتناولون البصل ، عم سيد قادر على خدمة العشرات فى وقت واحد ، لو رأيناهم معاً ، ماهر ، رياض ، لقلنا . . مصر تتناول افطارها ، أراهن أن وقفة عم سيد عمرها ألف سنة ، يسأل ماهر . . ألم تعثر مرة فى حفرياتك على بائع فول ؟؟ قلت بمنتهى الجدية طبعاً ، ضحكنا ، قلت إننى لا أتعامل مع جدران قديمة ، وزخارف تركية ، أو فارسية جامدة ، مرة أشرفت على ترميم بيت مملوكى قديم ، عمره حوالى ستمائة سنة ، فى الظهر ينصرف العمال ، أبقى أنا ، صدقونى يا أولاد كنت أرى فيه الحريم ، والأكل ينزل إلى الأغراب فى المضيفة ، والسقا يجىء بقرب المياه كل صباح ، وأحياناً أبقى حتى الليل لأسمع القرآن يرتل منذ ستمائة سنة ، مرة طاردنى صاحب البيت ، سيده ، أنه كبير تجار الغورية ، طبعا أنا غريب ، أشار ماهر بأصبعه إلى رأسه . . هذا أول ال . . ضحكت . . أبداً . . أبداً . . قلت . . لاحظ كبير المفتشين هذا فأمر بنقلى إلى المكاتب ، لكن لم يمر شهر حتى عدت إلى البيوت القديمة ، والجوامع والزوايا ، وأسبلة المياه ، من الصباح أقوم اليهم ، زمن داخل الزمن ، قالت أمى ، أصبحت تقوم مبكراً ، قلت تعودت ، سألت ، أين تذهب ؟؟ أتمشى . . بالضبط ما

أريده . . رؤية الحركة فى ميدان الحسين ، الصبية الصغار أمام جامع أم الغلام يقبلون نوافذ الضريح ، خشوعهم غريب ، ينتهون من قراءة الفاتحة ، يلثمون ظاهر أيديهم وباطنها ، ينطلقون ، يملأون الطريق فجأة زعيقاً وضجة ، كأنهم لم يقفوا كالتماثيل منذ لحظات ، حارات الجمالية لحظات الصباح الأولى ، طالبات مدارس ، من أعوام فى ذهابى اليومى إلى الكلية أبلع ريقى . . أقبض زمام قلبى ، آه يا حبى المريض ، ذوى ، أخيراً قلت لوفاء . صباح الخير ، قالت أهلا ، هى قالت أهلا ، لم أزد حرفاً ، بعد أيام صباح الخير ، نظرت إلى بعينين يعلوهما حاجبان علقا بعناية ودقة ، مطت شفتيها ، لم تجبنى .

* * *

قال ماهر . . يعنى لم تمش مع بنت ، لم تدخل مع أية واحدة السينما ، قال فريد . . أحببت كثيراً . . لا أذكر عددهن ، لكن من طرف واحد . . سأل . . يعنى لم تعرف النساء أبداً ؟ قال فريد . . هذا أمر مختلف . . ضحك ، والله شخت قبل الأوان يا فريد . . تدخل رياض فى الحديث ، عرف الكثيرات أحب بعضهن حباً حقيقياً ، مع ذلك ينسى الآن أسماءهن ، أليس هذا عجيباً ؟؟؟

ـ والله نسيت أسماءهن . .

* * *

« تــوقــع هجــوم جـوى مــع أول ضـــوء ، درجــة الاستعــداد القصوى . . » .

* * *

تحتـويهم الملاجىء ، ريـاض صامت ، مثقـل بغداء دعى إليـه فى الظهيرة ، عند صاحبه مدحت جندى لم . ط ، لحم محفوظ بالمكرونة ، بصل مخلل وخبز ساخن ، من فتحة « المزغل » ، فريد يـرقب السماء ، وحيدة ، حائلة اللون موحشة ، حبلى بخطر ، بعيداً تتراكم غيـوم ، لا يرى الافق من هنا ، حدود الأرض والسماء العالم كله مركز هنا ، ملـ ص هنا ، فى صخور الجزيرة ، قواقعها ، فى الحفر ، شباك التمويه ، المدن البعيدة ، أجهزة الـراديو فى المقـاهى ، شوارع قـرى الصعيد ، الـ اعة المتجولون بأقلام الحبر ومشابـك الغسيل البـلاستيك ، هنـا كسـ اريـة القطارات ، المسافرون الأغراب ، جنود الشرطة العسكرية عند تقـاطع الطرقات ، هنا ضريح أم الغلام ، مقام سيدى مرزوق ، فى الهواء دعاء الشيخ بعد آذان العصر يصعد إلى السماء البنفسجية ، اللهم سامحنا فأنت

راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، يصغى فريد ، يسمع نبض العالم النائى ، صيحات الجمهور فى معرض أوزاكا ، هدير طائرة فى ميونيخ ، احتكاك الزحافات بالجليد فوق سيبيريا ، الطبول زعيق القردة فى الغابات الأفريقية ، ربما انقضت حياته ، لا يرى شيئاً من هذا ، لكن يسمعه هنا . كل هؤلاء يعرفون أى صمت فى لحظة آخر ضوء ؟؟ تتغير الألوان بسرعة تقسو ، لون دخان دانة الهاون ، يتسرب الاعياء إلى السماء ، يفقد النهار بريقه ، يعجبه تعبير آخر ضوء . . لم ينسل بعد ، البرد ينفذ إليه عبر المعطف الثقيل ، غروب كل يوم مختلف ، لم يحلم برؤيته أبداً ، حتى فى الأيام التى قضاها هنا . .

* * *

تماماً ، موت السكتة كآخر قطار ليلى ، ينزل الليل ، يخفى ملامح الأشياء ، يذيب الصخور ، فوهات المدافع المنطفئة يغير الأفكار ، تختفى الأشياء ، يعيد اكتشافها من جديد ، ليل عفى موغل مسكون بوحوش القرش : تدب الدماء فى شعاب المرجان ، يتكلم البحر ، يوقظ الميت من الأحاسيس ، فجأة ينصهر السواد ، أضواء الفليرز الصفراء الوهاجة ، تفضح الخفى ، تنطلق الرصاصات الكاشفة الحمراء ، نقط دم ، تروح تمضى إلى بعيد ، توخز العتمة ، ينزل الليل ، يقطر حزناً ، تربصاً ،

حقداً ، يوغل كماء البحر إذ يطبق كالخيمة المنهارة على الغريق ، فى جوف الليل ، يطوف فريد ، يرقب حدود ، حواف الجزيرة ، ربما تسللت الضفادع ، يفحص السواد ، يوقن تماماً أنه لم يبتعد عن أمه أبداً ، وأنه لو استدار وراء هذا المرتفع ، سيلقاها ، تقعد القرفصاء ، ترتعش أهداب عينيها ، عادتها عندما تنظر إليه صامتة ، تحييه .

سقط شىء ما ، قفزت من سريرى ، بالضبط . . انفجار دانة ١٢٥ مللى ، قال صوت خفيض أنت فى البيت رائحة الهدوء حولك ، والليل فوق البيوت هادىء ، ناعم ، كنسيج القطيفة . .

* * *

تابعوا الفليزر يشق الفراغ الأسود يبقى معلقاً فى الفضاء ثوانى ، قال رياض أنا أحب الجزيرة ، تمنى ماهر لو زارها قبل الحرب ، قضى فى هدوئها يومين ، لكن عمله فى مصنع الأثاث بالاسكندرية ، لا يتيح فرصة السفر له ، دمنهور لم يرها ، يتمنى لو دار فى الصعيد ، حلمه ، أن يركب طائرة تخرج به من الحدود ، يربط حزام الأمان ، يقرأ اللوحة الحمراء . . ممنوع التدخين ، يسمع المضيفة . . الآن نهبط . . فى باريس ، روما ، جنيف ، لوجانو . . الآن يا سادتى نحن . . نحن هنا .

ضحكوا .

قال فريد . .

ـ اسمعوا . . فيما بيننا . . نسمى الجزيرة بأسماء البلاد . . بلاد مصر ، هنا سوهاج الموقع المجاور أسيوط . . ثم المنيا . . الفشن . . مغاغة . . كفر الشيخ . . فوه . . دسوق .

نشطوا ، احصوا المحافظات والقرى التى جاءوا منها ، وزعوا الأسماء ، قال فريد ان وفاء التقى بها هنا ، عرفها هنا وكلمها وابتعدت عنه ، تفتيش الآثار الذى يعمل به على بعد خطوات ، أما الحسين صاحبه فمقامه عند أكبر صخور الجزيرة . . المواجهة لجرأة وعنف البحر . .

تأكل معنا يا ماهر ؟؟

لا . . أنا معزوم فى أسوان . .

* * *

ـ الم . ط فى أسيوط تشتبك مع العدو . .

ـ الهجوم فوق الجزيرة . . فوق مصر كلها . .

* * *

هل تعبر ؟؟ يعنى عبرت القناة ؟؟ قلت أنا لم أعبر . .

أطرق الحاج اسماعيل ، قال جلال انه عندما يتأمل فى إمكانية العبور

فلا يصدق ، قرضت شفتى ، نظرت إليه ، تساءل . . كيف يعودون ؟؟ صمت ، قال ، لا بد أنهم مخيفون . . قلت من ؟؟ قال . . الذين يعبرون . . قلت أبداً أعرف كثيرون عبروا ، انهم عادوا ربما يمشى أحدهم فى شارع قريب الآن . . زعق جلال ، وصلة سكر يا ريس . . ، التفت حسان ، هل حقيقة أنه فى هذه اللحظة تدور اشتباكات فى القناة ؟؟ قلت بالتأكيد ، بسط الحاج راحة يده . . كأننا نعيش فى آخر الدنيا ، قام محمود البنان ليغلق دكان البن المطحون والشاى ، آه لو أقوم ، أنام ، أطبق الوسادة على رأسى ، تضج شوارع المدينة فى عقلى ، الألوان ، النساء ، فى ميدان العتبة رأيت وجهاً يشبه وفاء ، تتعلق صاحبته بذراع شاب ، رأيت الأسى فى الأنوار المضيئة ، رأيت ماهر غارقاً فى صمته ، بعد نزولى الأجازة مع رياض ، سأل حسان ، هل تخاف من القنابل ، ضحكت باختصار كموجز الأنباء . . كرر جلال . . حقاً تخاف ؟؟ قلت فى البداية لكن بمرور الوقت يعتاد الإنسان كل شىء ، ضربت الأرض بمقدمة حذائى ، الليل فوق الطريق ، لكنى رأيته لحظة الصباح ، انتهاء الإجازة ، يجلس الواحد منا مع أهله ، أصحابه ، مشحون برغبة الحديث ، لحظة شعوره بالخطر ، انفجار قنبلة الألف رطل ، لزوجة نيران النابالم ، يبدأ الحديث ، تشل الألفاظ ، الحديث عن الشظايا ، الإنبطاح لحظة سماع الصفير ، غوص الجسم فى الأرض ، صيحة التحذير لزميل ، اخفض رأسك ، فجأة . .

يسهم المستمع ، يفكر فى أمر ما ، كبير ، صغير ، يشغله ، يلفظ كلمة لا تمت إلى الحديث ، تتقطع الصلة ، تعلو جدران الاسمنت المبطنة بالضجر ، يلسع البرد جسمى ، أهى الرغبة فى البكاء ، العويل بلا توقف ، يتحدث سيد عن خناقة كبيرة فى خان الخليلى ، أخبرنى حسان بالأمس ، انهم ضبطوا فى غيابى عربة مرسيدس مشحونة بالمخدرات ، كانت تقف فى ميدان الحسين ، زفوها إلى القسم ، أخبرنى أن مديحة بيانولا بائعة البوريك هربت ، لف عليها طويلا ولم ينل منها ضمة ، دوخته هو ، وقبلت عويس الفران أما محمد فيتا فعرض عليه أن يحضر بعض الزغاليل وعنده فى الدكان متسع ، بشرط . . بعد الواحدة صباحاً ، سأل الحاج اسماعيل فجأة ، نظراته تقول . . صدقنى الإجابة ، هل الطائرات المعادية تسقط فعلا . . قلت طبعاً . . رأيت بعينى سوبر مستير سقطت ولم يصدر بها بيان ، اتسعت شفتاه فى خط ضيق يرسم الشك عبر وجهه ، قال يا ريت كلامك حقيقى . .

* * *

الهجوم الجوى مستمر فوق الجزيرة . .

يلتهب حد الأفق ، انفجارات دانات الم . ط . فى السماء . . كتل من الدخان ، غامقة ، ثابتة ، كالحجارة ، تساءل رياض ، لا توجد

مواقع جنوب الجزيرة .

أى شىء يضربونه هناك . .

* * *

صوت أمى لحظة الوداع ، لا قبلات ، عينا أبى العجوز ، عواطفنا لا تعرف الحركات سبيلا للتعبير عنها ، بصمت نزلت السلم ، اللفافة بيدى ، فرخة ، بسطرمة ، جبن رومى ، تدمع أمى فى الشرفة ، أثق من هذا ، ليس ذلك ما يصنع حزناً فى لوحى ، ماذا إذن ؟؟ ضجة نزول الليل الذى أفارقه ؟؟ اختناق الشوارع بالعربات الملاكى ، السادة فى المقاعد الخلفية ، راقصة جديدة ، تحتاج إلى من يلمعها ، لقاء السحاب ، السحاب يلتقى ، الصديد يقطر ، العمر ثوان ولا سنين يا حبيبى . . يا حبيبى ؟؟ ماذا إذن ؟؟ الأمان الرخيم ، حفلة الثالثة أمام السينما ، أقدام الرجال الملفوفة بأحذية حمراء ، حمراء فعلا ، هل تصدق يا ماهر ، هل تصدق يا رياض ؟؟

والله لا نعرف . . كأن هذا العالم لا يعرفنا . .

أهو الأسى لحظة مجىء الصباح ؟؟ ذكر الوجه البعيد النائى كأطراف العالم ، وفاء التى لا أمر بعقلها حتى بمجرد صورة ؟؟ أحببت بعدها . لكنها علاقات مبتورة ، يقضى عليها بمبضع جراح ، الحب القديم جبل يناطح

سماء لا آخر لها ، حوله صخور صلبة لا نرقى إليه ، ياه حتى الممرات البسيطة لم يعرفها ، أما سعيد فلم يضاجع امرأة قط ، ضحك ماهر ، صاح فيه ، أعرف كيف تحل مشاكلك فى الصعيد ، زام سعيد ، اسكت يا ماهر ، عيب يا ماهر ، ما الذى يقطر المرارة ، كأنها مقدمات صداع فظيع يقترب إلى ، يرفع حد الهلاك ، فوق الأزهر ، جامع أبى الذهب ، المآذن ، أعمدة هائلة مستقرة آمنة تسند الفراغ ، يتجمع الناس حول طفل صغير ، يتشنج ، يتقلص ، صاح رجل . . انظروا اسمه وعنوانه مكتوبين بالكوبيا فوق قميصه ، ناصية سليمان عامرة ، ماذا يدور فى شارع الليل ، الألوف تنفق فى طريق الهرم ، على مرأى من الأقدمين ، غداً . . صفحة كاملة عن الأغنية الجديدة ، السوالف هى الموضة . .

« قلت لك اسمعى كلامى » . . يوم واحد نقضيه فى الإسكندرية . . لك ما ترغبين ، مدير يختنق مع صاحبته فى بانيو .

هل هذا وقت إثارة المشاكل . . هل هذا وقته . . المعركة أهم . . صاح رجل الشريفة شريفة مهما جار عليها الزمن .

ضرب شاب المنضدة بقبضته . . أعطنى واحد براندى . .

قال مدحت صديق ماهر .

تصور عندى حساسية ضد الخمور . . محكوم على أن أعيش عمرى بوعى كامل . . شىء مزعج طبعاً .

تتأمل النساء قوائم الطعام فى الفنادق الفاخرة ، ترفع امرأة حاجبيها . . يا سلام . . والله مبروك خطبت لمن ؟؟ . . ابن عائلة ؟؟

تأتى العربات فى الطرقات ، ضرب شاب أسمر طيب الوجه جبهته ، زعق فى الشارع الخالى . . يا سلام . . يا سلام لو تتحقق الأمنيات .

يلمع النيون مزيفاً . . العمر ثوان والاسنين ، فجأة تقول البنت من خلال الراديو . حققت لى كل آمالى . . لما جبت لى ساعة كامى . . كل آمالى . . ساعة كامى . . كامى . . كامى . .

* * *

رياض يفرش المشمع ، تدب أقدام الجرذان فى الملجأ ، وقعها لزج ، ينام ماهر . ربما يصغى .

قال فريد . .

اتخذت قراراً . .

لم يرد رياض ، عندما يقدم الواحد منهم على شىء ، صغيراً كان أو كبيراً ، يقف متصلباً ، خارج الملجأ ، قرب الصخور ، يعلن ، اليكم القرار التالى ، « سأفتح علبة اللحم الأخيرة » « بعد الظهر سأنزل

لأستحم » « فى أول إجازة سأكلم بنت الجيران » ثم يقومون بعزف مارش عسكرى بأفواهم ، الآن . . لم يرد ماهر ، أو رياض ، الليل فوقهم غريب ، بارد ، كهف أسود موحش من الجليد ، قال فريد حزيناً . .

لن أنزل اجازة أبداً . . أبداً . .

* * *

أدلى متحدث عسكرى بالبيان التالى :

قام العدو فى الساعة التاسعة من صباح الخميس بهجوم جوى عنيف على جزيرة شدوان ، التى يبلغ طولها ١٦ كيلو متراً ، ويتراوح عرضها بين الثلاثة والخمسة كيلو مترات ، ويوجد بها فنار مدنى لإرشاد السفن ، منعاً من اصطدامها بالشعب المرجانية ، واستمر العدو فى القصف الجوى لمدة أربع ساعات متتالية ، مستخدماً طائرات الفانتوم ، وسكاى هوك الأمريكية الصنع ، وتمكن تحت هذا الغطاء الجوى من إنزال كتيبة مظلات منقولة بالهليوكوبتر . .

ولا يزال القتال مستمراً حتى ساعة إعداد هذا البيان . .

* * *

أمام المزغل . تماماً كم المسافة ؟؟ ثلاثون متراً ، الهليوكوبتر ، جرادة ضخمة مبقعة ، أرى الهواء ، دوائر الهواء حول المراوح ، اندفعت

خارجاً ، ينزف رياض ، الدم لا يطيق البقاء ، يهرب منه ، اصطدمت رصاصة بالصخرة ، ارتدت ، صريرها حاد ، تفلت الطائرات من الفراغ ، لولبية النزول ، من صفاء السماء تهوى ، أى موضع يحط عليه لسان النار ، فقط ، المنيا ، قنا ، قوص ، أم الدلنجات ؟؟ يحترق سيدى الفولى ألماً ، ينزف الحسين دماً ، لا يفيق ألف عام ينزف هنا ، ذهب ماهر منذ الصباح إلى أسوان ، موقع الـ م . ط . المجاور للفنار ، تلتهب الجزيرة ، تنصهر ، لم أعرف أرضاً إلا هنا ، لم أعرف الإجازات ، تقاطع الطرقات ، تلتهب القرى هنا ، تحترق ذكريات طفولته ، محطات السكك الحديدية التى وضعناها ، تخيلناها ، صهاريج المياه ، يتدلى سلم قصير ، أى الصور تتدفق إلى الذهن ؟؟ رائحة الدخان ، احتراق نشارة الخشب ، لون البيوت ، الآن ــ بالضبط ، البداية ، لم أشعر بشىء ، تقول أمى ، سرقته السكين ، ماسورة الكلاشنكوف بلا معنى ، الزناد لا يدفع طلقة ، بوادر اسهال عنيف ، قنابل الألف ــ الثلاثة آلاف رطل ــ تمطر فوق أيامى ، يبرد الكون فى أذنى ، ضغطت المدفع ، دفعته ، رميته فى اتجاه الأقدام المستديرة ببطء ، حول الجرادة المهولة المدومة .

* * *

« يا جنود الصاعقة .. استسلموا .. »
« أنتم محاصرون من جميع الجهات .. »
« ستعامل الأسرى معاملة حسنة »

* * *

« وبلغت خسائرنا حتى ساعة اعداد هذا البيان خمسين فرداً .. ولا يزال القتال مستمراً حتى الآن » .

* * *

يجيد العربية تماماً ، يقتل أمى فوق طشت الغسيل ، يفجر الرحم ، يخرج المولود قبل الأوان ، يخنق ضوء الغسق ، يوثقنى ، يخز الضلوع لتظل الجفون منفرجة ، طريقى اليك يا أمى وعر ، ينزف . القار ساخن يملأ الفراغ فيما بيننا .

* * *

« قالوا : تقدم من الفنار .. قف هناك بحيث يصبح ظهرك إلينا » .

* * *

الآن تماماً الرابعة ، ربما الخامسة أفقر لحظات النهار ، تهجرها الرقة ، تنفجر الكآبة ، أشد الأكدار حزناً ، ترثى الأمنيات ، أموت ، لا تمتد

الأصابع لتسبل الجفنين ، لو جاء الموت بعد مائة سنة ، فوق سريرى ، أى أفكار تجىء عندئذ ؟؟ يهوى القلب بين الضلوع . عندما أخرجوا رياض بدا جسمه ضئيلا ، لم أره بهذه الضآلة أبداً ، كان فارغاً ، تتحرك أطرافه كيفما شاءوا ، ايه . . بدا سهلا ليناً ، مطيعاً ، ما آخر كلمة قالها ، منذ بداية الهجوم لم نتبادل كلمة . أغمضت عينى ، أعرف ما يفعلونه ، يحشون الجوف ، الألغام . يقبلونه على وجهه . آه لو اندفع اليه . أذوب معه ، انفجر معه ، أوثقوا عمرى ، لم أر الفنار من قبل كهذه اللحظة ، كل شىء يبدو غير ما هو . .

* * *

« نريد أن نعرف . . هل زملاؤك بالداخل . . أقنعهم بالتسليم » .

* * *

تنقص المسافة ، طلقات متفرقة ، تتابع بعنف ، يخفق قلبى ، يخفق ، ما الملامح التى تميز وفاء . . لماذا خفق القلب عند رؤيتها هى بالذات . . هنا رأيتها عند طرف الجزيرة الجنوبى ، عند الشاطىء مشت تتأبط ذراع شاب يشبهنى ، تساءلت بحسرة كاوية ، بماذا يتميز عنى . . تقصر المسافة ، أخوض فى عمرى ، هنا مضغت الأرغفة الساخنة ، هنا صرت عجلات القطار عند سفرى مع أمى إلى بلدتنا ، انتظرت أبى عند

المنحنى ، تسلقت أشجار الدوم الأجرد ، تعلقت بعنق أبى ، أذكر وجهه شاباً ، بطانة جاكتته ، دفعت الهواء إلى صدرى عند خروجى الصباحى ، أفتش عن حفائر الآثار ، هنا بكيت عند مقام أم الغلام ، قال الشحاذ الأعمى فى حارة الوطاويط ربنا ينصر الإسلام ، صاح أحد المارة ، إذن احلف ، فصاح والله العظيم . والله العظيم . . والله العظيم هنا عرفت وداع الأصحاب ، أظن الفنار خالياً ، من بقى بـه . . ضاع ريـاض ، مقهور . . موثق أنا ، اختلت الأشياء ، نـظام الدنيـا لم يقم ، خرست أصوات الفراغ ، تنوح المياه ، يطفو القرش بلا رقيب ، ينزف دم الشهيد من جديد ، مذاق صوت أمى . . حس أمى . . نسيته . .

« قطع الخطوة الأخيرة بينه ، وبين الفنار . . » .

* * *

ثانية ، أو جزء على الألف منها ، رعشة عقرب فى ساعة معصم ، لم أره ، لم يتجسد ، انبثق أمامى ، ماهر ، لم أقل لفظاً ، لم يقل كلمة . لم يصلنـا حوار ، يتقلب البحـر فى صدرى ، تلكمنى يـد ، البـلاط كبـير مضلع ، يرقد فوقه ، يحتضن مدفعه ، لم نقل شيئاً ، لكنه قال . . رأيتك من فتحة الجدار ، وقلت له بعينى ، بعروقى ، بدمى الذى يتفجـر من ذراعى ، رأيتك يا ماهر ، رأيت مصنع الأثاث ، شوارع اسكندريـة ،

أيامك على شاطىء البحر ، الأشجار التى لا توجد إلا فى اسكندرية وهواء اسكندرية ، ورمل اسكندرية ، وعطر اسكندرية ، كل ما عرفته فى الإسكندرية يا ماهر أنت ترقد فى هذا كله ، تقرأ اللافتة ، ممنوع التدخين من فضلك ، تفك حزام الأمان ، تنظر من النافذة المستديرة ، ترى الجزيرة من ارتفاع ثلاثين ألف قدم ، لا ترى شيئاً ، إنما كل شىء اختصر ، بتر بقسوة ، مجرد صفحة فى أطلس خريطة ، يدفق الدم من جرح كبير فى ضلوعه ، أى دم هذا ، لن يوقفه أحد ، يمنعه أحد ، آه لو اندفع إليك ، لو عندى أخ يشبهك ، أقول لك همى ، عمرى يا ماهر أمامى فى هذه اللحظة ، مركز ، ملخص بقسوة تفرى مصارينى ، لم تسألنى عن أسرتى ، لم أعرف شيئاً عن اخوتك ، عمرك الأول ، أعرف كل شىء الآن ، ترتعش حواف أيامى ، ترتجف سنينى . لم أحب بشراً كما أحببتك الآن . هنا الوطن ، آه يا ماهر ، توافقنى غير أن البكاء متعة نائية ، زعقوا ، زعقوا ، يتقيئون فى الهواء ، داخل الفنار ، شبابى دفنته هناك ، وضعته خلف الطلاء ، تحت البلاط ، لن يعثروا عليه ، جسمى جرح واحد ، اقتربت منهم ، يتخذون وضع الرمى ، الشفرة الحامية تجز الرؤوس ولا عاصم ، ماهر يلمس الزناد ، عيناه صافيتان ، لا يكف الدم ، لكنه واع تماماً . كان حليق الذقن ، خيط دم رفيع كعلامة

استفهام ، كبصمة ، بجوار فمه ، هل عشت هذه اللحظة من قبل . . أين . . ربما فى منام . .

* * *

وأضاف جاى بوشينسكى مراسل شركة اذاعة وستنجهاوس وجريدة شيكاجو نيوز . . وكان مصاحباً للقوات الإسرائيلية يصف بعض ما رآه . .

. . وحين انتهت ذخيرة أحد المواقع ، وكان به جنديان ، قتل أولهما وأسر الثانى ، ثم طلبوا منه أن يذهب إلى مبنى الفنار ليقنع من فيه بالتسليم ، ثم عاد الجندى المصرى ليقول لهم انه وجد المبنى خالياً . . وعلى الفور توجه ضابط اسرائيلى وعدد من الجنود لاحتلال المبنى ، وما كادوا يدخلون من الباب حتى فوجئوا بالنيران تنهال عليهم من مدفع رشاش . . كان بالداخل جندى مصرى جريح آثر أن يقاتل حتى النهاية ، بعد أن رفض زميله خيانته . . والإبلاغ عنه . . وفى موقع آخر . . . .

عصفور الشتاء المهاجر

نشرت فى « المجلة » ١٩٧٠

الرصد والاستطلاع

.. رفيعة العنق ، مجدولة الضفائر ، تجرى ، بيديها تنبش الأرض ، جلبابها قديم متسخ ، منقوش بورود حمراء كبيرة جف لونها ، حول معصمها غويشة حمراء ، يجىء هواء وديع ، يلمس أشجار التفاح والبرقوق ، يرعش أطراف الحطب فوق بيوت القرية ، يلوى دخان الأفران ، هدوء يحوى الإنفجار المرتقب ، تجرى ، تجرى ، طفلة ، صغيرة ، خطواتها فوق التراب خفيفة ، لا تخلف أثراً ، بصمتها وجريها ولعبها تقول حديثاً طويلاً ، لا أسمعه هنا فى الحفرة ، أراه بخفقه القلب ،

ارتعاش الدم فى الأوردة ، فى الشرايين ، كأنى أركب قطاراً يهدىء سرعته عند مروره بمزلقان مدينة هادئة ، جدران بيوتها نظيفة ، النوافذ مغطاة بستائر هشة فى لون الضباب توحى بما تحويه الحجرات الداخلية من هدوء ناعم منسال خصب ، أما الطرقات فمر شوشة بماء الورد ، أنظرها من وراء زجاج نظيف براق ، فى خطواتها ، نظراتها السريعة الحائرة ، طريقة جريها ، تقول لا بيت لى ، أنا طفلة لا أخرج من باب واحد اعتدت رؤ يته كل صباح ، لا يأوينى فراش أحفظ لون غطائه ، رائحة وسادته ، عيناى تتعلقان كل مساء بسقف جديد ، أحياناً الفراغ ، فى عمرها الصغير أرى حوارى صغيرة ، أشم رائحة صابون منبعثة من ملابس منشورة فى الشرفات ، حلقات ذكر يتردد فيها اسم الله ، ذوبان الوجد ، نزهة غروب ، هنا ، حواف الحفرة ، خنادق المواصلات ، أكياس الرمال ، مزاغل الرؤ ية ، كمر الحديد يتخلل أسقف الدشم ، تجرى من جديد فأرى نفسى طفلا صغيراً فوق عجلة ساقية خشبية محملة بالقواديس يتدفق منها الماء ، أصغى إلى دقات مدخنة وابور الطحين ، هى ، هى ، لتركيروسين يضىء المصابيح ، يشعل الوهج فى الأفران ، فى صيحتها ، خروجى الصباحى إلى كتاب القرية ، رائحة المياه فى ميضأة الجامع ، الذكريات ملمس الجباه لحصير المسجد ، أسمع صوتها فيترقرق حزنى إذ ينحنى صوت الرجل المسن ، وفى برد الفجر يجىء من فوق المئذنة ، أو فى

فراغ الجامع ، بعمق ، ينفذ من الجماد ، يحلق عند الأفق « علم الإنسان ما لم يعلم » الفجر يظلل البيوت ، عبير اللبن الرائب ، الرهبان الفقراء يمشون فوق الطرقات الزراعية ، السلام يا أبانا ، الصياح فى الأسواق ، مروق أيام الربيع ، الظهور البطىء لنجوم السماء ، انفلات نجم وحيد يهوى مطروداً ، لو قلت هذا لأصحابى لزعقوا متعجبين .

مجرد طفلة عابرة . . ترى فيها هذا كله . .

أصيح فى وجوههم . .

بل أكثر ، إنها دعاء أمى ، لمسة يدها فوق جبينى .

أسندت منظار الميدان إلى عينى ، امتلأت العدستان بملامحها ، فى عينيها بريق طفولة ، نبش يديها لأكوام القش يثير أياما نائية ، قطعا لم أعشها ، يبعث أيام العمر الأولى التى هجرتنى أنا ، ضاعت منى أنا ، من العريف عوض ، الرقيب محروس ، على ، عادل حكمدار طاقم الهاون ، حتى الملازم سمير ، ها هى تفتح فمها ، ربما تصيح ، تنطق لفظا ، حرفا واحدا تقول فيه آلاف الكلمات ، بوجهها خطوها المتوثب ، تروى ما جرى لحظة بلحظة فى كل يوم مر منذ بدء الخليقة ، تعرف ما تمناه كل حى عاش هنا ، وقعت عيناه على نفس الأرض ، الموت ، الحرب ، الوباء ، هجرة القوم إلى بعيد ، الزرع ينبت رقة ، أمنيات ، زغاريد

أفراح بعيدة ، آهات ليلية مجهولة المنبع ، شيوخ طيبون ، نساء عمرن كثيرا ، أطفال ماتوا قبل أن يولدوا ، مضوا لكنهم تجسدوا إلى أبد أوراقا وغصوناً ، صاحبتي الصغيرة السمراء التي لا أعرف حتى الآن ، من هي ، تنادي كل حي باسمه ، حتى الطير ، النبات ، حجارة الصوان ، أعمدة الرخام من أبوكي يا بنية ؟ لا بد أنه يستمد خبزه اليومي من وقع أنفاسك على ساعديه اذ يحتويك ، همسك عندما تطلبين جرعة ماء ، محروس يدير جهاز التليفون داخل الملجأ ، الرنين متقطع الانفاس ، ربما تهمس لها الأرض بما لا أدريه ، تعرف وجودي هنا ، إنني أرقبها منذ أربعة أيام ، أعرف متى تظهر فوق الطريق المترب في أوقات ما بين الغارات ، لا تجهلني ، تعرف أنني في مثل هذا الوقت ، في بيتي البعيد ، أخاف من رحيل النهار ، يهجرني الضوء ، أتساءل ، هل يجيء وهج السماء من جديد ؟ أخشى نزول الليل وزحفه الخبيث إلى الفراغ ، أشرب شاي العصر ، أنزل ، عند المقهى أرقب الميدان ، أتتبع الرجال والنساء . أسأل عمّا في ذهن كل منهم ، غير أنني لا أقدر على النفاذ فارتد ملوما محسورا مقهورا .

* * *

بريد حربى :

سماء ، تصور ، اسمها سماء ، سألتها . . ما اسمك ؟ لم تجب ، مال رأسها الصغير ، طرف إصبعها بين شفتيها ، رأيت خجل العمر الأول ، صوتها يعبر صباح يوم جمعة هادىء ينام فيه الخلق حتى ساعة متأخرة ، يوم لم يعرف ضجيج الحرب أبدا .

اسمى اسمى سماء . .

فى خطاب قديم أرسلته اليك آخر شهر من شهور الشتاء ، قضيناه فى موقع آخر بعيد ، تخفيه أشجار ما نجو ، حدثتك عن عصفورة صغيرة ، ضئيلة ، لونها أسود كمياه ترعة فى ليلة بلا قمر ، لكن منقارها الصغير ، حبة القمح ، الشعير ، الارز ، لونه أبيض ، أيضا ذيلها ، خطوها ، وثبات رشيقة ، التفت إلى ، كأنه يصحو من غفوة فجأة ، قال ، عصفورة غريبة ، لحظة صمت ثم قال ، ربما لا يوجد فى مصر كلها الآن إلا هذه ، عرفت ياصاحبى أن أسرا عديدة لا أول لها ولا آخر جاءت أول شهور الشتاء من آخر بلاد الدنيا حيث الشتاء لا يحتمل فى أطراف العالم ، أسراب لا تراها أنت فى المدن ، إنما تجىء إلى الحقول ، أشجار المانجو ، الجزر الصغيرة المتباعدة فى بحيرة المنزلة القريبة ، غير أن هذه العصفورة بالذات لسبب ما ، لا أعرفه ، يجهله الملازم سمير ، كل من رآها ، أنت أيضا ،

تخلفت ولم ترحل ، بقيت وحيدة بعد عودة أصحابها ، لا بد أن علم دراسة الطيور أطلق عليها اسما لابد أنها تنتمى إلى نوع ما ، فى أى بلدة عاش ، أى خصائص تميزه ، أيضا عمرها يختلف عن عمرنا ، كم ؟ ومتى تدركها الشيخوخة ؟ كيف تموت موتا طبيعيا اذا لم تصبها رصاصة صياد ، سوادها هل يعرف المشيب ، عيناها الصغيرتان ، كيف تبدو الدنيا من خلالهما ؟ انعكس فيهما جليد ، ثلوج ، عبرت بحارا عريضة ، مشت فوق بيوت منحدرة السقوف ، حول كل منها حديقة صغيرة ، مراكب صيد السردين الصغيرة ، مدن عائمة ، يستطيع الملازم سمير إمساكها فهى تبدو متعبة ، ربما طاش عقلى ، اكسر ساقها بطلقة ، تجىء الينا أسيرة ، غير اننا لم نمد يدا ، رأيناها مرة ، ثم ثلاث مرات ، خلال غارة طويلة بدت بلا نهاية ، حطت عند حافة الملجأ ، لحظة مقدارها غمضة عين ، طارت ، ضاعت تماما ، منقارها ياصاحبى التقط غذاءه من دمى ، ذكرتنى هذه العصفورة مثلا بك أنت ؟ بالقرى ، بالمدن ، الهدوء ، والضجيج ، المسافرون الأغراب ، عازفو الآلات الموسيقية فى الفرق الريفية المتجولة عبر الموالد والأسواق ، الطائرات ، انبثاق الدوى من أفواه المدافع ، كله ملخصا فيها ، ربما وقعت فى فخ ، أطلق عليها النار ، اغتالتها الأيام الجافة الحارة التى فشلت فى الهرب منها .

تذكر أنني حدثتك فى ليلة بعيدة عندما سهرنـا فى مقهى صغير أول شارع محمد على ، قلت أنت انه أعادك إلى زمن بعيد لم تعشه ، كل شيء فيـه ، المقاعـد والمناضـد والزبـائن ولمبات الإضـاءة ، ترجعنـا عشرات الأعوام ، لا يمكن أن تنسى ، طبعا لم تنس ، فى عمرى الأول الطفل ، أمسك طرف جلباب أمى ونمضى إلى السوق ، وابور الطحين ، ماكينة المياة ، دائما حتى فى الجبانة ، أرى الخضراء ، تجيء إلى بيتنا ، تدق مغلاق الباب ، تعطيها أمى رغيفا شمسيا ، تردهـا عنا ، تقـول أمى إنها بنت ضائعة بلا أب ولا أم ، لو اختفت لا يسأل عنها أحد ، تروح ، تجيء ، لا يهم ، كنت صغيرا لكننى تمنيت لو تزوجت الخضراء ، من أجلها سرقت حبات الدوم من صومعتنا ، الترمس والخبز ، ضربتنى أمى ، آخر مـرة رأيتها عندما جئنا مصر لنقيم مع أبى ، واقفة بجوار تكعيبة البوص فوق الجسر ، قالت لأمى ، مع السلامة يا ست ، صوتها يدمع أى والله يدمع ، قـالت بسرعـة . . الله يسلمك يـا خضراء ، فى الحلزونـة سمعت أمى تهمس ، ربنا يستر طريقنا آخر ما نشوفه من البلد ، نشوف الخضراء ، فى مصـر ، قلت ، نفسى أشـوف الخضـراء ، قـالت أمى ، والله مـا أنت نافع ، لا تذكر من البلدة إلا بنتا ضائعة ، بكيت ، بقيت أتوقع رؤ يتها خلال لعبى فى الحارة بعد أن تجرأت وصاحبت عيال المدينة ، فى طوافى حول مقام السيدة نفيسة ، الست فاطمة النبوية ، ربما رأيتها عند المقام ،

متحنى حارة ، تطلع من قبو ، تنزل من عربة عندما قالت أمى إنها بلا أب ، بلا أم ، حرت كيف يعيش طفل بلا والدين ؟ وهل يوجد فى العالم طفل لا أب له ولا أم ؟ تقريبا يا قابيل عرفت كيف جاءت الخضراء ، كيف عاشت وحيدة مقطوعة الجذور ، أوشك فى لحظات كثيرة هنا على استرداد طفولتى ، أدنو منها ، مع يقينى أنها وهم ، لم أعشها وإلا قل لى أين هى . . ؟ آه . . أين ذهبت ؟ أجبنى يا قابيل . . حتى خلال قصف المدفعية ، دانات الفوسفور التى تحرق حشا الصمت ، تقلبه ، تومض سنين عمرى الأولى فجأة ، تجىء براقة مشعة لها وهج ، لكنها تضيع فى لمحة ، عندما رأيت سماء . كذبت نفسى ، لم أمر بمثل عمرها أبدا ، أبدا « سماء » ستظل على حالها طول العمر ، لن تشيخ أبدا ، سماء يا مصطفى لو مرت طول اليوم ببيوت القرية ، لن يقلق عليها قلب ، لن تتردد صورتها فى ذهن أب أو أم ، لن تسمع صوتا يدعوها لتناول طعام .

* * *

قطاع :

يتوهج الفليرز ، فى البدء قبضته ضوء ثاقب ، يحرق الليل ، يشعل اللون البرتقالى ، يعرى الظلام ، يكشف ما خفى ، ينشر الوهج اللزج ، يشد العيون ، أرقبه ، انطفىء ، انطفىء ، كن بردا وسلاما ، يضيع ،

يعود من جديد ، يجرح صدر الليل ، يثقب سقف العالم القاتم ، لا نرى الطائرة نفسها ، غير أن الفليرز النارى كاشف الطرقات والأمنيات والدشم ، مهلك الامهات ، مبيد الأجنة فى الأرحام ، يقول أن جسما معدنيا يطير متوثبا متلولبا متقلبا ، ضبع جائع ، ينبش الكون بحثا عن سماء ، تخرج الذانات من مدافعهم مكتوب فوقها ، سماء ، سماء ، الهاون الثقيل والخفيف مقصده هى ، الهاوزر ، الشظايا ، النابالم ، الألف رطل ، من يأتى بالطفلة ابنة الأربعة أعوام . سماء ، حية أو ميتة ، له ملك الأرض ومن عليها ، من يصيب سماء إصابة مُباشرة تخرس أنفاسها ، تقتل طفولتها ، له الأمان ، له السلام ، نعطيه كنوز الذهب وصوامع الفضة ، أخفيناها فى ركن قصى من ملجئنا الحصين ، أعددنا لها فراشا صغيرا تتمدد فوقه ، الآن لا تفارق الموقع ، تطارد الجرذان ، لا تخافها ، فى الهدوء تحكى أقاصيص صغيرة كذوائب ، حلية فضية ، يردد محروس ، الأطفال أطهر خلق الله وموقعنا آمن ما دامت سماء فيه .

أقول ، أخاف عليها ، عندما صاح الملازم سمير .

بلغ عن حاضر . .

يرد الحكمدار . .

تمام يا أفندم . . جاهز الضرب . .

ترتج ، تنشق الأرض ، تبدل السماء بسماء غير السماء ، تولى القذائف مطرودة من أفواه المدافع . .

بلغ عن حاضر . .

يرتجف الهواء ، يحترق ، مطواة هائلة فى الفراغ ، تشطره ، أزعق . .

ادخلى الملجأ يا سماء . .

يرتد المدفع . .

اضرب . .

فوق صندوق آخر تقف ، يداها وراء ظهرها ، عمرى الرقراق البكر الفرح ، الايام النقية ، فى همسة زمن تولى ، تنفى إلى بعيد .

ادخلى الملجأ . .

لا تسمع ، ابتسامة العمر الأول ، دقة واحدة حزينة لساعة كبيرة ، بندولها يهتز فى بهو منزل كبير ، قديم بلا أصحاب ، سماء ترقب الدانات تخرج من الصناديق ، الدانة فى حجم طفل أكبر منها بأربع سنوات .

تمام أفندم . .

اضرب . .

الرأس الصغيرة تميل قليلا ، تخلق لعينيها زاوية رؤ ية مختلفة تنفض يديها ، تنزل ، تسند ظهرها إلى الصندوق ، كأنها ترقب أمها الجالسة أمام الفرن ، تحمى الوقود ، تدخل أقراص العجين إلى الوهج ، تنتظر خروج الارغفة الساخنة ، رائحة أواني الفخار ، سماء تجرى ، تحمل الحطب ، تحلب عنزة ، تسقى دجاجا . عندما رحت أشير إلى أجزاء المدفع ، سألتها ، عرفت اسم المدفع .. آه .. أطبقت شفتيها على اصبعها ، قالت .. الهـ .. الهاون ، خرجت الحروف رقيقة ، ممدودة ، تقطر طفولة ، رقة ، فرحا خفيا ، مناجاة الأشياء ، لو أنى أنجبت طفلا . سيلفظ الاسم بنفس الطريقة ، يتراجع برأسه الصغير تماما كما فعلت ..

اضرب ..

عبوة كاملة ش . ف .. فاصل عشرين ثانية بين القذيفتين .

اضرب ..

يهوى علينا الليل ، ترميه سفن مسافرة فى الفراغ الكونى ، مجهولة لا نراها ، لا ندرى مقصدها البعيد ، يسيل سواده لزجا فى لون العسل ، يمضى النهار ويجىء الليل يضيع النهار ويتسلل الظلام زائرا غريبا ثقيلا لا نرغبه ، نهمس تحته ، لا تعلو أصواتنا ربما دل صوت على مكان صاحبه ، لا نشعل لهبا أو سيجارة ، لا تبرق عقارب ساعة ، كلها

علامات تدل الهلاك الطائر ، تلمسني نظراتها الصغيرة ، تنساب عبر الحفر ، فوق أكياس الرمال تنشر فرحا خفيا يلون أيامنا كاكية اللون ، فى صباح طازج ، ريقه حلو ، كالافطار بالزبادى على شاطىء ، هدوء يلغى الحرب ، ينفى الخطر ، الدم ، الموت المرتقب ، اضرب ، حاضر ، الحرائق ، نباح الكلاب المذعورة قبل مجىء الطائرات بثوان ، بحثها عن الملاجىء ، التصاقها بأقرب إنسان ، تتلمس فيه الامان ، أى أمان ؟ فى هذا الصباح أرسل قائد الكتيبة يستدعينى ، أمسكت يدها ، عبرت معها الحفر ، كأنها ابنة حانية تحمل طعاما إلى أبيها فى أقصى الحقول ، مررنا بدشم خالية ، مواقع هيكلية ، مرابض مدافع ، صاح أصحابى الجنود ، أعطاها حسين علبة توفى صغيرة ، بدت خجلة ، دارت حول ساقى ، تخفى نفسها ، عبرنا بيوت القرية القريبة الفقيرة ، أشجار خوخ ، نباتات محروقة بالفوسفور ، لم تسألنى إلى أين نمضى ؟ اذ تنام أراها ضئيلة الجسم ، أكثر مما تبدو عند يقظتها ، ضعيفة ، رقيقة ، نزلنا ملجأ قائد الكتيبة ، ضربت الأرض بقدمى ، رفعت يدى بالتحية . . كأنها تسأل ، لماذا أفعل ؟ قام سيادته ، دار حول المكتب البسيط تلوثه بقع حبر جافة قديمة ، مقشور الطلاء ، ربما صاحبه أحد مدرسى القرية .

اقعد . .

ترددت ، رأيت الود فى ألفاظه ، سماء تدير عينيها فى الملجأ الخفيض المطبق على الأنفاس ، الجدران المبطنة بالأسمنت والأحجار وأكياس الرمال ، من طبق صاج أبيض به ثمار مشمش ، تناول حبتين ، واحدة لها ، دستها فى جيب ثوبها الصغير ، ابتسم سيادة الرائد . . كليها الآن . . هنا كثير غيرها . . كليها الآن .

* * *

بريد حربى ــ ١٤ ــ

. . عندما طلبنى سيادته مضيت اليه ، العصر يحتل الفراغ والرمال والدشم ، راديو صغير فوق المكتب يبعث أنغاما رمادية اللون ، آتية من مكان ما ، بالتأكيد حجرة مغلقة مبطنة بعيدة جدا عنا ، أصغيت إلى الصمت المثقل برائحة الرمال ، قلت له انها يتيمة الأب والأم ، قلت ان والدها مات فى غارة ٤/٢٧ التى أغارت فيها ستون طائرة على الموقع القريب . أما أمها فغادرت الدنيا بعد مجىء سماء إلى العالم ، قلت ان أباها جاء إلى القرية مهاجرا من الصعيد ، فهو ليس من أهلها الاصليين ، حتى امرأته من قرية ناحية بلبيس ، انها بلا أقارب هنا ، يقولون ان خالها يعيش فى أبى قرقاص عاملا بمصانع السكر ، لم يره أحد أبدا ، أطرق سيادته وقال ، ربما لا وجود له ، قلت ممكن جدا يا أفندم ، قلت ان أباها عمل

أغلب وقته حمالا ، يستأجره ، أصحاب الزرع والأرض هنا ليخلع نخلة من جذورها ثم يشقها نصفين ، قلت ان الحظ يسعده أحيانا فيستأجره بعض الناس ليجمع ثمار البرقوق والمشمش ، يعرى تعريشات العنب ، قلت . . نعم ، عاشا بمفردهما فى آخر بيوت القرية ، هل تعرف سيادتك عشة البوص التى تقابلك عند دخولك القرية من ناحية الجسر الخشبى الصغير فوق الترعة ، ليس الجسر الكبير ، إنما الصغير ، هز رأسه . . نعم . . بالضبط أعرفه ، وفى الخارج شيئا فشيئا يقترب المغيب ، لم أر ذهاب الشمس إنما أحسست بابتعادها ، هجرتها للعالم ، حرت فيما يفكر ، فى المرة السابقة ، عندما جئت ومعى سماء ، أخرج حافظة أوراق بنية اللون من جيب سترته ، فيها بطاقات أشخاص ، ودفتر تليفونات ، قصاصات ورق ، طابع تمغة لمحته ، قلبها ، أبرز صورة طفل صغير ، تأمله قليلا قبل أن يمد يده بالحافظة ، يطل من خلالها طفل فى الثالثة ، قل الرابعة على الاكثر ، شعره يغطى أذنيه ، فى عينيه تساؤل ما وكأنه ينتظر إجابة لن تأتى ، قال أتعرفين يا سماء هذا مصطفى ابنى ، أبديت اهتماما ، وكان لا بد أن أبدى اهتماما ، لكننى عندما رأيت عينى الطفل تمنيت لو أطيل النظر اليه ، قرب الحافظة من سماء ، قال . . ابنى . . . ابنى ، اعتدل واقفا ، ضحك ، هل أزوجه لك ، أغمضت عينيها ، انتفخ ركن فمها عندما مدت لسانها داخله ، التفت إلى . . تصور أن عينيها فى لون

عينى مصطفى بالضبط ، كل ما أتمناه أن أنجب أختا لمصطفى ثم أكف أليس هـذا حسنا ، هـززت رأسى ، بالضبط ، عنـدمـا وقفت أمـامـه بمفردى ، حرت فيها يفكر ، أقسم لك أن رأسه يشتعل . . لا ، ليست أحزاناً ، إنمـا . . ماذا تسميهـا أنت ، المشاعـر هنا تختلط لهـا نوعيـات خاصة ، ربما تذكر مواقف بعيدة ، قريبة ، بقايا أنغام ترسبت فى أعماق النفس ، ربما صيحة طفل ، ضحكة مصـطفى ، كلمة قيلت من عـابر مجهول ، نظرة من جندى ذاهب إلى الأبد ، اختفى ، لم يبق منه غير حديث متباعد يتناوله أحياء معدودون يذكرونه ، وبقايا مهمات ، أمور ، صور صغيرة يذكرها ، تمر به ، تتراءى له ضئيلة لكنها حارة كنيران النابـالم ، احتراق الجلد الحى واللحم ، ربما قلت فى نفسك ، لماذا ؟ أنا شخصيا لا أدرى ، إنما أثق من هذا ، المهم ، أنه قال بود ، عندما تكون الحالة هـادئة . . تعـال مع سـماء . . أراها دقيقتـين . . أرى عينيها بـالـذات وترجعا . .

* * *

« أمر » :

تقصف الكلمات .

تحجب الشمس وراء غيوم ، يفسح الطريق لحداد عفى أبدى الظل نار محرقة ، المياه فى الافواه كاوية .

توقف النافورات اطلاق مياهها فى الميادين المتباعدة .

ينسل التيار من الأسلاك ، تخرس الأضواء .

لا زعيق ، لا عتاب أصدقاء ، لا صيحات وداع .

أو أحزان عشاق تبوح عن نفسها . .

مياه الانهار تصير بنية اللون ، جيرية القوام ، ترسل إلى الفراغ عطنا ونتنا

الشلالات تشل ، الينابيع لا تتدفق .

يوقف المسافرون الفرحون بالرحيل إلى الجبال المغطاة بالثلوج ، حيث الفنادق هادئة .

النساء جميلات مستباحات ، والعيش نعيم طرى .

يفك المسافرون أحزمة الأمان ، توقف المحركات ، تهجر السفن فى عرض البحار .

تخلى المركبات ، يطفو السمك ميتا .

لا فرحة بلقاء ، لا بهجة بعودة الأسرى إلى الديار بعد غيبة أعوام .

يلزم كل حى مكانه ، فى الكون كله ، لا يفارقه قط ، يعلق إلى رقبته قرمتين ثقيلتين من خشب الصفصاف ، يبنى حول نفسه أربعة جدران وسقفاً من الإسمنت الأصم ، يبقى حتى يجف النخاع يروح الدم من العروق .

تقطع الاوتار ، يخرص النغم ، يلقى العازفون آلاتهم ، لماذا الغناء ؟

لا صوت فى الآذان غير حشرجات روح تذبحها الشظايا .

ليفارق الرجال النساء ، النشوة خيانة ، الفرح عهر ، نسيان الهم خسة .

عيون البشر وسط رؤ وسهم فلا يعرف الانسان أمه من أبيه أو بنيه .

يخرج السجناء ، ترفع آلات التعذيب ، تفتح عنابر المعتقلات ما ذاقته سماء ، ما رأته ، فيه آلام الكون المقبلة لمدة ألف ألف عام ، القطن لا يطل من اللوز الاخضر ، تتساقط الثمار ولا يجنيها أحد ، يعيد كل صياد أسماكه إلى البحر .

تتصاعد الاسئلة من النجوع ، الكفور ، القرى ، المدن ، خيام البدو الرحل .

أين راحت الايام التى ضحكت فيها ، لعبت ، خجلت ، ابتسمت ، أطرقت ، بكت ، رقصت ، سألت عن غيبة الأب فقلنا أبوك حتما يعود .

ليسأل طين الحقول ، كيف هوى الملاك ثقيلا باترا حادا من الفراغ ، كيف تسمح النجوم ، الأفلاك ، قوانين الطبيعة الخفية ، كيف تحضر من بعدها الحياة ، كيف ، كيف لا يدرك كل حى ما أدركها .

ليسأل نواح الطيور اليتيمة المهجورة من رفاقها ، البكتريا وحيدة الخلية ، دقات وابور الطحين ، صرير عجلات القطار عند التوقف ، الضوء الضعيف المنبعث من مكاتب التلغراف فى الريف ايماءات الجنود عند تقاطع الطرقات العسكرية ، كراسات الصغار ، الحروف المرسومة بالطباشير ، دروس الصباح .

لتنوء الاجسام بهم عظيم يثقل الاعضاء ، تتفجر الارحام بآلام لا يطيقها بشر ، تصطف الحوامل فى الطرقات صفوفا ، يلفظن ما فى أرحامهن .

لماذا يأتى إلى العالم طفل جديد ؟

الظمأ

نشرت فى الآداب ١٩٧١

حتى الهواء كف عن المرور بين الشواهد الرخامية ، لم يبق إلا صوت الحبيب معلقا فى الفراغ ، يعطر الافق ، ينفذ إلى رئتيها ، أوردة قلبها ، كما ينفذ خيط رفيع من ثقب إبرة . .

أمى . . عطشان . . اسقينى . .

لن تنسى مذاق حسه أبدا ، ثقل بضغط كتفيها ، تنظره واقفا بكامل ، ثيابه ، لحظة مجيئه فى الاجازات ، اكتمال الدفء فى صالة البيت ، برؤ يته تتبدد وحدتها ، خلاصة ما مضى وما تبقى من عمرها ، الآن تعرف أن زملاءه كذبوا عليها ، تتوه نظراتها فى أشواك الصبار ، الأسماء المنقوشة بحروف سوداء ، تواريخ الرحيل عن العالم ، الآن . .

هذه اللحظة ، تماما ، طلال لم يعد متمددا ، الشهور المنقضية تثق أنها لو كشفت عنه ، تلقاه على حاله ، فى حدقتى عينيه آخر نظرة ، أما الدماء فحارة طرية بهجة أطفال لم تجف . . من فوق الجدار تناولت الابريق ، تدفع عنه الظمأ ، حراشيف السمك التى تغطى الحلق والفم ، قال زملاؤه انه رحل مرتويا بلا أوجاع ، رمت قليلا من الماء فوق التراب تطهر فم الابريق ، ألصقت أذنها بسطح الرخام البارد ، الشتاء يكثف البرد ، تقف وحيدة فى كهف جليد ، أصغت ، أصغت ، أصغت ، تسمع نبض الروح الواهن ، ستة شهور يؤلمه الظمأ ولم ينطق إلا اليوم ، الحبيب لم يشأ إزعاجها ، ناداها بحس خفيض فيه خجل واعتذار ، عيناه تزحمان المكان ، ينظر اليها من طوب السور الاحمر ، عند الركن الأيمن تراه طفلا يحبو ، قالب سكر ، ثمرة برتقال يرتدى البنطلون القصير ، تمسح الخيط اللامع الواصل بين فتحتى أنفه وشفتيه ، تحت شجرة الصبار الخضراء المؤلمة لعصب النظر ، رأته جالسا فى شرفة البيت والوقت عصر ، حوله هالة من غمام شتوى فيه أسرار ، يقول انه شرب الشاى فى أماكن كثيرة ، لكن كوب الشاى الثقيل حلو المذاق ، الذى يشربه من يديها لم يذق مثله أبدا ، ينام دائما وقت العصر ، اذا لم يغفُ ولو حتى نصف ساعة ، تحرقة عيناه الليل بطوله ، الآن ، تسمع وقع أقدامه ، يملأ المكان ، لو رحلت إلى طريق خال أو مزدحم تلقاه ، فى محطات السفر ، قوارب النزهة ، عند

الجسور ، حديثها اليه ، وصله ، سمعه ، ياه . . وكيف تشك فى هذا ، عمره هنا ، طفلا رأته ، شابا عفيا ، ضاحكا ، باكيا عندما امتدت يدها عليه مرة واحدة ، هل تصدق أنها ضربته ذات يوم ؟؟ رأته فى الثياب العسكرية ، يدفق دم الشباب ، ثم صندوقا ملفوفا بعلم ينزل بطيئا فى هواء مثقل بنوبة رجوع فادحة ، منبعثة من بروجى نحاسى ، الآن تسمعه لاهثا . . أمالت الابريق . . إشرب يا خويا . . اشرب يا حبيبى . . اشرب يا رجلى . .

يبكى الابريق ، تسقى الفجوات المستطيلة الصغيرة بين ألواح الرخام . ينام ، اذ يسمع خطواتها فى عمق الليالى ، تعبر الصالة إلى المطبخ ، يصيح . .

اشرب . . اشرب يا ماما والنبى . .

لماذا قالوا انه لم يظمأ أبدا ، فى الفراغ العتيم يومها ، فى خفق البيارق السوداء ، فى النواح كادت تهلك ، احتضنتهم واحدا ، واحدا ، أحمد ، ابراهيم ، حسن صاحبه زميل المدرسة والطريق ، سهر الليالى والتدريب ، الكلية ، سألتهم ألا يتركوها ، ألا يدعوها وحيدة ، ما تخافه ، ترهبه ، نزول الليل عليها ، خطو ساعاته فوق روحها ، تعلم ، تعى ، ان العالم كله خلا من طلال ، صحيح يا حسن لم تمضِ

روحه معذبة ؟؟ هل ذكرنى ؟؟ متى ، متى بالضبط ؟؟ آخر كلمة قالها ركن العمر ، تعريشة البيت ، سند الأيام القاسية ، يهمها جدا أن تعرف آخر كلمة ، كيف نطقها ؟؟ وإذا لم ينطق لسانه فما نوعية الصوت الذى صدر عنه ؟؟ ما الذى كانت تفعله ؟؟ تفكر فيه وقت انفجار الهلاك حوله ؟؟ قال حسن ان لسانه لم ينطق إلا بذكرها هى ، ناحت ، مضغت الحجارة ، عمرها تمهيد طويل لهذه اللحظة ، غير أنها فى أول ليالى الوحشة ، جاء فى اغنية قديمة ترامت اليها من بعيد تنعى أحبابا محملة بالبوص والحطب ، غرباء يعبرون الجسر ، يركبون جمالا محملة بالبوص والحطب ، غرباء الدار ، يرحلون من نجع إلى نجع ، غناؤهم أبكاها طفلة ، تبكى ، دمعها يفيض منه النهر ، تنوء بحمله السماء ، يزحم بلدتها فى حشا الصعيد ، يقوض أساس بيوتها ، طلال سافر إليها مرات ، يرى جدته ، الأقارب ، خاله يجىء كل عيد أضحى ، غروب الوقفة ينتظره طلال ، يقول انه يشم رائحة الخبيز فى الأفران ، القمح فى الصوامع ، يسمع وابور الطحين ساعة الصباح لحظة رؤ يته خاله ، ترقبها فرحة ، لا بد أن يسافر طلال ، يمشى معه فى البلدة ، تضرب صدرها بيدها . .

يحسدوه يا حماد يا خويا . .

يلوح بيده المطلة من كم جلبابه الواسع ، الناس لن تسعها الفرحة عندما تراه ، ثم يقول بعد صمت يوش فيه الموقد . .

أربى لك رابحة وأجوزها لك . . اجدعن . .

يا ريت يا خالى . .

يصفر الهواء ، لا بد أنه يرى نفس الصور ، ما تراه هى يبدو له ، عيناه بصره فى الدنيا ، شظايا الأيام البعيدة يدهسها الآن قطار وحشى ، يلوى القضبان ، يغرق فى الترع العميقة ، بعد ذهاب أصحابه والنساء ، والاقارب ، ليس معقولا أن يقضوا بقية العمر معها ، جاءها طلال بدرا منيرا ، وريحا طيبة ، وغناء شجيا ، وشمسا تسعى بالدفء إلى عمرها ، فى عينيه لون الطفولة ، نادته ، زارها فى القرية ، قهوتها الصباحية ، الماء الذى يذهب بظمئها ، البرودة المخففة عنها آلام القيظ ، لم يقل لها طلال كفى عن البكاء ، لم يفه حرفا ، فى هذه الليلة ترامى اليها عويل قطار بعيد ، ربما ديزل يعبر الخلاء خارج المدينة ، انقبض قلبها ، نادت امرأة على ابنها من شرفة علوية ، أدركت أنها وحيدة حتى القرار ، بلا طلال . . صاحت . .

أنا ضايقتك فى حاجة عشان تسيبنى بدرى . . بعد العمر دا كله تروح منى . .

لو تمشى وراء أحمد ، حسن ، زملاءه ، تبحث عن الذى شيع الهلاك إلى نجم الصباح وحيدها ، شخص بعينه لا بديل ، تذيقه ما رآه رحيق

عمرها ، اتسعت ابتسامة طلال ، يتمنى لو يمد يده ، تقدمت منه ، تقدمت ، لكن المسافة كما هى ، جدران البيت وحوش تزحف اليها ثلجية النظرات ، كان يغيب عنها شهرا ثم يجىء أربعة أيام اجازة ولا تفجعها الوحدة ، تعرف أنه يضحك فى مكان ما ، يرقد يشرب شايا ، يأكل رغيفا وشريحة جبن ، لكنه فى لحظة بعينها ، بعد أيام محددة تحسبها على أصابعها أثناء شربها القهوة أو عندما تطبق الوسادة على رأسها ، لحظات ما قبل نومها ، حتى يجىء الاحد أو الاربعاء ، السبت ، يطرق الباب ، عندما طلع صباح أول يوم لا يتنفس فيه طلال الهواء ، خرجت بمفردها ، تنوء بحمل البيوت ، تمضغ ألواح الزجاج وأسفلت الطريق ، لا تصدق أن شيئاً جرى ، يومها عرفت عم اسماعيل الحارس ، وامرأته ، ألقت السلام على طلال ، قعدت إلى جوار الشاهد الرخامى الجديد ، فى اليوم الثالث تساءلت مفزوعة ، كيف نسيت الشاى ؟ جاءت بموقد الكحول ، فى نفس الميعاد توقده ، تملأ الأكواب ، السكر تذيبه بتأن ، تسقى عم اسماعيل امرأته وعياله ، تروى شاهد الرخام ، أحيانا تقعد امرأة عم إسماعيل ، تحكى لها ، تسلى وحدتها ، اذ تمضى إلى السوق ، تولى وجهها ناحية طلال ، تسأله عن حاله ، تحكى له كل ما جرى خلال يوم مضى ، سفر حسن أفندى على إلى أسيوط ، روحية جارتهم وتليفونها الجديد الذى أدخلته ، وزعت نمرته على الجيران كلهم ، تتحدث فيه بصوت عال قرب

النافذة متباهية ، مجيء نجمة شقيقة صباها من البلدة ثم سفرها بعد يومين ، خروج سكان البيت مع بعضهم إلى السينما يوم الخميس ، مدرس جديد يتردد على مديحة ابنة أم صبرى ، قبل نطقها اسم « مديحة » يتسلل اليها تردد ، تخاف أن تذكره بها ، فى الشهور الأخيرة لا حظت أنه يسألها كثيرا عن مديحة ، هل تراها أثناء غيابه ؟ قالت له . . والله مديحة بنت حلال يا طلال . .

سكت ، ضحك ، أم صبرى نفسها أحست ، قابلتها فوق السلم ، سألتها عن صحتها وعن . .

ازاى سى طلال . . ربنا يحرسه ويحرس اخوانه . .

والنبى بييجى أربع أيام بس . . بيفوتوا زى الهوا . .

لو يفضى نفسه كل يوم نص ساعة . . ويذاكر لمديحة انجليزى . .

أبدت اشفاقا ولم يغب عنها مقصد أم صبرى ، ثمة قلق راودها ، لكنها انتظرته عند عودته ، لحظة تغييره ثيابه ، بمرح دفعته فى صدره . .

عندى أخبار حلوة . . تفرحك . .

أصغى ، لم يفتها تسلل الدم إلى وجهه ، ياه . . لا تذكر ما قاله ، نسيت ما قال ، الانفجار الوحشى يحرق الزهور ، يغرق مياه الشرب

بزيت مسموم ، تعرف انه يخجل ، تخاف أن تنقل اليه أخبار مديحة ، ترتجف اذ توشك على ذكرها ، ربما تألم فى رقدته ، خاصة ، الخبر الذى سمعته من امرأة عبد الهادى بائع البيبسى كولا عند الناصية . . ما دريتيش يا ختى . . شعراوى اللى بيشتغل فى الجمرك اتكلم على مديحة . .

سهمت ، تجرعت دواء مرا . .

وأهلها قالوا ايه ؟

يا ختى . . حد لاقى يجوز بناته اليومين دول ؟؟؟

جاءت اليه ، النهار كله تبكى ، ربما سأل عن سر حرقتها ، تخاف مواجهته ، ترى فى عينيه ارتباكاً عند ذكر مديحة ، آماله فيها ، هى تحبها ، تود لو رأتها باستمرار ، ألم يذكرها طلال آلاف المرات ، لكن . . هل يخفى عليه شىء ؟؟

فى قتامة العصر ، وقت اعداد الشاى ، همست للخلاء . .

ما علهش يا طلال . . أنت أحسن منها . .

سمعته يقول مرتجفا . .

وذنبها ايه يا ماما . . زبنا يسهل لها . .

سكت ثم عاد صوته هامسا ، متعثرا ، طفلا يحبو .

ما فيش أى حاجة بينى وبينها . . أنا حتى ما خرجتش معاها مرة . تلقاها مش عارفانى . .

عاطت بصوت انتزع امرأة عم اسماعيل ، جاءت ، احتضنتها ، وعندما أخبرتها ناحت امرأة عم اسماعيل نفسها ، الآن . . تغرق السماء فى لون هو خلاصة الأحزان ، فرغ الابريق من الماء ، تسأل الفضاء والجدران والاشجار والنبات النامى فى الفناء ، كيف لم تعرف ظمأه إلا اليوم ؟ كيف ؟ شهور كاملة لم تسقه جرعة ، صحيح انها تجىء بالشاى والافطار وطعام الغداء ، خاصة السمك الذى يحبه ، توزعه على عم اسماعيل ، فقراء قايتباى ، لكنها لم تسمعه إلا اليوم ، آه يا عذاب لسنين ، يقوم طلال كل ليلة ، يخرج إلى الطريق ، دماؤه لم تجف ، روحه ظمأى ، يسأل المارة ، عابرى الطريق جرعة ماء فيخاف منه الرجال ، يفزع الاطفال ، تسقط الحامل جنينها ، لا يقدم له مخلوق جرعة ، يزعق وتنام هى ، كيف تفارقه عند غروب كل يوم ولا تمضى الليل بجواره ؟ طلال شرايين كبدها ، ظمأى ، طلال نجم بعيد خافت يرتعش بردا فى سماء مهجورة ، لا شمس فيها ، طلال نهار شتوى عمره قصير ، فرحة طفل لم تتم ، ضياء عين انطفأ ، هوى الابريق من يدها ، دارت بين شواهد الرخام ، الاسماء وتواريخ الرحيل عن الدنيا ، أبدا لا يؤنس

وجدته إلا هى ، تبحث عن ابريق مملوء ، أبدا لا تلقى ، أطل غلام من البوابة الحديدية . .

والنبى شوية ميه يا حبيبى . . شوية ميه أخوك عطشان . .

خاف الغلام فاختفى ، خرجت إلى الطريق ، الهواء ملىء بالتراب كالدم الجاف ، طلال حولها ، تسمعه الآن ، تشرب صوته الظامىء ، انها الأرض وينابيعها ، شلالاتها ، مساقط المياه لن ترويه إلا إذا اندفقت من يديها هى ، تمر امرأة ضاربة ودع ، نادتها ، لم تسمع ، الطريق خال ، الاصوات ولت ، لون السماء يضيع ، امرأة عم اسماعيل ، عم اسماعيل ، لا أحد ، كيف ينقضى العمر بسهولة ، كيف ؟ تعبر الصفوف إلى طلال متعثرة الخطى ، تسمع نبض حنجرته ضعيفا واهيا . . آه لو تمطر السماء ، تمد الكفين ، تجمع بهما جرعات تسقى الحبيب ، ان ولت عنه ثانية ، رجفةُ عين ، فهى هجرة أبدية لا تطيقها ، ظمأ يدرك الجنين فى الحشاء ، لن تمضى حتى يرتوى ، رقدته يبطنها الشوك طالما يعذبه الظمأ ، مالت . . احتوت الرخام بين يديها طفلا باكيا غريب الأبوين . .

المغول

نشرت فى روز اليوسف يناير ١٩٧٠

يا أهالى مدينة أوترور . .

نزل جند المغول من الجبال . .

وأحاطوا مدينتكم

انتبهوا

لا يخرج أحدكم ولا يدخل

ساعدوا جنود الشاه وحامية المدينة

باذن الله سيردون الخطر . .

انتبهوا

وما النصر إلا من عند الله

* * *

خطا خارج التجويف الضيق ، رجال قصار ينظرون اليه يمتد الممر خلفهما فى النهاية ثلاث درجات ، تقدم أولهم بيده قطعة قماش مبتلة أحاط عينيه بها أمسك ذراعه أين يقف الآخـرون « دفعته اليـد الغليظة . أى الاماكن فى البرج تدوسها قدماه ، برق ضوء أزرق طارت نجمة صغيرة داخل فراغ أسود هلامى ، أسرعت خطواتـه ، أثر اللحم الـذى صفع عنقه ، يسرى تحت جلده زجاج مبشور ، كاد يقع عندما توقف فجأة ، اصطدمت قدمه العارية بحاجز . .

اطلع . . اطلع . . واحـد . . اثنـين . . ثـلاثـة . . اجـرى . . اجرى . .

الشيخ فى وجه الحجرة ، الصبيان يضع كل منهم لوحه الخشبى على قدميه ، كان يجلس دائما فى نهاية الغرفـة إلى جانب النـافذة المطلة على الطريق ، ينظر من خلال القضبان ، من بعيد ، فوق البيوت ، يعلو البرج

جسم حجرى نحيل ، يعلو صوت الشيخ ، ولا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟؟

صباح أوترور مبلل بالندى ، البيوت تتنفس ربيعا فى لون الكهرمان ، أوز يعبر الطريق ، الرجال يخرجون ، يتطلعون حولهم ، نسى بعضهم أن يقول لجاره . . صباح الخير . . الرعاة لم يخرجوا إلى المراعى ، تجار يقفون أمام خان المدينة ، كان من الضرورى أن يرحلوا صباح اليوم ، خرج مولانا علاء الدين ، وقف عند مدخل المسجد .

* * *

انزل . . انزل . . لا . . تضربوه . .

* * *

الحشائش الصغيرة الخضراء فى قلب المدينة ترتجف لكثرة ما يضحكون ، يسخرون ، يظن العجائز الجالسون على مقربة انهم يسخرون منهم ، ينتهى أحمد سلار من تقليد بعضهم ، يقف صبية صغار يمصون أصابعهم ، يأسفون لا يستطيعون مشاركتهم الضحك .

اندفع رجل عجوز عارى الصدر ، ممزق الثياب ، وقف فى وسط الميدان الكبير ، الرجال يجلسون منذ الصباح ، يكتشفون لحظة بعد أخرى ، أن المسافة التى يستطيعون التحرك فيها أصبحت محدودة ، رفع

الرجل يده .. صاح .. سينزل غضب الله على أوترور لانكم فجرتم وما راعيتم ذمة ..

* * *

.. لم أكن أظن أن شابا هزيلا مثلك له مثل هذه الاهمية .. انتظروا .. قلت لا تضربوه .. هو سيتكلم .. سيقول لنا كل ما نريده ..

احتكاك الاحذية الثقيلة بالارض الصلبة ، أى الحفر تضم أجسام من أخذوهم من الحشد الكثيف ، يوم الحشر العظيم ، خرج مولانا علاء الدين إلى الطريق ، توكأ على عصاه ، مشى اسماعيل بجواره ، فوق المدينة مغرب أصفر وقتيم ، الليلة لا تشابه أى ليلة مرت من قبل ، من داخل الجدران تسربت إلى الطرقات أصوات النساء اللواتى لم يفارقن بعضهن منذ الصباح ، انتقلت كل منهن إلى الاخرى عبر أسطح المنازل المتلاصقة ، عند نهاية الطريق ظهر جزء من سور المدينة ، لا يبدو الخطر مجسما بل ان واحدا من أهل المدينة لم ير بعينيه واحداً منهم ، لكن هذه الابواب المغلقة تجسد ما يقف وراءها ..

ابعد الشيخ الآن .. ابعده .. لا .. هو سيتكلم ..

* * *

أصغى اسماعيل إلى شمس الدين ، يتحدث عن بلاد تمشى فيها نساء جلودهن فى سواد الليل ، عرايا كما ولدتهن أمهاتهن ، وهناك جزر فى عرض البحر المحيط بها فتيات أبكار كأنهن الأقمار ، شعورهن مربوطة إلى أشجار ضخمة يصحن إذا ما أشرقت الشمس . . واق . . واق . . تبارك الله الخلاق . . يكررن النداء إذا ما لمس القرص الأحمر مياه المحيط ، أصغى اسماعيل ، بدت له بلاد بعيدة رجالها قصار القامة ، المساجد قبابها من ذهب ، مآذنها تطعن الفراغ ، هل يمضى العمر بين حوارى أوترور .

انطق يا اسماعيل . .

أحقيقى يا شمس الدين أن هناك عالم غير العالم ، ناس غير الناس ، مدينة لا يطعن هواءها برج أصم لا يعرف من يعيش بجواره ماذا يحوى « وكم يمضى من الزمن حتى نعبر البحر المحيط » ومتى ترسى المراكب على شطآن نشعر فيها أننا وجدنا حياة غير الحياة .

قال مولانا علاء الدين . .

لو دخلوا المدينة . . لن يجدوا غنائمهم بسهولة . . أتفهمنى يا اسماعيل . .

صاح محتجا . .

لكن أسوارنا قوية يا مولانا . .

* * *

ارتفع صوت آخر ، بارد ، ملمس الحديد لحظة سقوط الثلج وسط الليل ، رائحة عرق لزج تنبعث من ناحية اليد اليسرى .

لا نريد ايذاءك . . أنت ضعيف . . لن تحتمل . . أنت مسكين وتبدو هادئا .

ولست مشاغبا كالآخرين . . آه . .

ــ أنا اسماعيل فخر الدين الرازى . . طالب علم يا سيدى . .

* * *

هواء ساخن خرج دفعة واحدة من صدر قريب ، تدحرج جسم ثقيل ، صفر شيء ما ، أقدام تروح ، تجيء ، كلمات متتابعة من حنجرة قريبة ممزقة مملوءة قيئا ، من أى الشبان الذين لم يمر يوم من حياته إلا وراه . .

ــ هو . . إسماعيل الرازى . . إسماعيل يعرف كل كبيرة و . . صغيرة . .

كان مع مولانا علاء الدين خطوة بخطوة . . أخبرهم يا إسماعيل فتنقذنا . . تنقذنا كلنا يا إسماعيل . . انطق . . تكلم . . أى . . قل لهم . . أى . . آه . . آآآآ . .

* * *

اندفعت امرأة عجوز إلى مولانا علاء الدين ، الصقت شفتيها بيده . كتفاها نحيلتان ، جسمها يرتعش ، ما الذى جرى يا مولانا . . ولدى لم يصل . . صحيح لا أحد يدخل ولا يخرج . . همس مولانا ، عيناه على السور المصمت ، نسوة يرفعن أصواتهن بالدعاء فى مكان بعيد . . .

جاء المغول يا ابنتى . . لا يخرج أحد ولا يدخل . .

* * *

الثالث والعشرون من شهر آرام ، سنة هوكار ، الموافق لمرور ستمائة سنة بالضبط على خروج مولانا وسيدنا حبيبنا محمد رسول الله ﷺ . من مدينة الكفار مكة ، مصطحبا صديقه وصفيه سيدنا أبا بكر رضى الله عنه ، قاصدين المدينة فى هذا اليوم والشمس لم تصل بعد إلى منتصف السماء ، دخل ثلاثة رجال من المغول إلى حجرة حاكم مدينة أوترور المثلثة البارزة من السور ، تطل على الخلاء بواسطة ثلاث نوافذ متسعة من الداخل ، تضيق من الخارج ، نبح كلب من بعيد ، نزل صمت ، أسند

الرجل الغارق فى الزرد ذقنه إلى يده ، . . لم تحترموا سفراءنا فذبحوهم من قبل ، وهذا ليس من خصال الرجال ، فلتعلموا اننا جند الله فى الأرض ، خلقنا من سخطه ، وسلّطنا على من حل به غضبه ، نحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ، فتحنا البلاد ، وقهرنا العباد ، وهبنا الله حكم الربع المسكون من العالم ، لا فائدة من المقاومة ، افتحوا أبواب مدينتكم فلم تصمد أمامنا حصون ، ولم تنتصب قلاع . .

***

ضحك . . ضحك . . ضحك . . يعلو . . يعلو . . يعبر الفراغ يثقب الجدار من يدرى ؟ هل كان فعلا ضحك ؟ آت من بعد سحيق ، لا بد انهم تسعة عشرة ، يتجمعون عند ناصية بيت منهار ، بقايا خان يتصاعد منه دخان ، يشربون الخمر المصنوع من لبن الخيل ، هل سمع بكاء طفلة . . أنفاس المدينة المكتومة هسيسها يخترق الجدران كأنه من عالم غير العالم ، دنيا غير الدنيا .

كثيرا ما أسند رأسه إلى حافة السرير ، فى الطريق صوت خطوات ، يعودون من سهرة مبكرة ، غناء بعيد من الطريق الآخر للبيوت ، يعلو ، يقاطعه صوت خطوات ، آلة موسيقية سريعة محمومة توشى بجسم راقصة ينثنى ، تتأوه امرأته فى البيت المقابل ، أو المجاور يصيح رجل يا رب . .

يغمض إسماعيل عينيه ، لكم تبدو أصوات الليل غامضة مجهولة ، بل مجىء النهار يصيح بائع اللبن ، نادى رجل يخرج من بيته القريب ، يا ساتر يلين الفراش تحت جسمه ، بالقرب من السرير يستقر كوب لبن أبيض دسم مملوء إلى الحافة ، محلى بالسكر ، لا تنساه أمه أبدا تصايح صبية صغار يذهبون إلى المسجد الكبير ، يقرؤ ون ويكتبون على يدى مولانا علاء الدين ، تماما كما كان يفعل منذ خمس عشرة سنة ، تنمو الضجة فى الخارج عندما رشف آخر ما فى كوب اللبن ، مسح الماء من فوق وجهه ، بدت له الحياة هشة طرية فى رخاوة العجين . بعض النهار فى السوق الكبير وإذا ما نزل الليل ، إلى مولانا علاء الدين . . أو أصحابه . . نزعوا العصابة المبللة ، أمام وجهه تماما . . مسافة تساوى سمك الأصبع ، وجه مستدير ، أصفر عريض الوجنتين ، ضيق العينين ، شاربه رفيع يتدلى حتى يلامس الصدر المغطى بقطعة جلد بنية اللون ، حول وجهه فراغ غامض خليط من أشياء غير معروفة ، لكن ثمة ما يقول ان الرجل من جنس غير جنسه ، ربما ثيابه غلظ ركبتيه وقصرهما ، لاستدارة وجهه ، أسنانه ، عيناه ، نظراتهما الحادة ، اليدان العريضتان وقطعتا الجلد المرصعتان بدوائر معدنية بيضاء تحيطان بالمعصم ، والله لو تخفى فى صورة امرأة جميلة من آخر بلاد الدنيا ومشى فى السوق مثيرا شهوة الرجال وغيرة النساء ، لو حط على النافذة فى هيئة عصفور وليد ، لو اتخذ صورة مولانا

علاء الدين الذى يعرف وجهه كل حى فى المدينة ، لو قلب الوجه شوه الملامح ، أزال الرأس ، لعرفه . . عرفه . . مغولى أصفر الوجه ، حتى لو صرخت هذه الضحكة المفتعلة الكاذبة التى تكشف أسنانا لونها لبن الخيل وأطلق فيها رائحة الروث والزنخ . .

أغمض عينيه ، اختفى الضحك ، ربما ناموا ، السكون كالجليد فوق المراعى ، لا يرى بيوت المدينة المشوهة الخلقة ولا الطرقات التى نزل عليها الخراب ، لكن يحس ما بها يسمع وقع خطوات الرجال الصفر قصار القامة ، تماماً كما كان يشعر بهم ولا يراهم أيام الحصار ، فى المساء نهاية الأسبوع الأول يجلس الشبان فى صحن المسجد يسمعون مولانا علاء الدين ، يعرف تماماً أى جنس يقف وراء الأسوار ، زمان من عشرات السنين قبل أن يولدوا زار صحراء الجوبى ، رآهم وصاحبهم عندما غاصت جيوشهم فى بلاد الصين العظيمة كما تغوص السكين فى قالب زبد ، قالوا أسوارنا حصينة ، دحرج مولانا حبات مسبحته ، لكم أحب المدينة ، لا يريد أن يرى لأهلها ما رآه فى بلاد الخطأ حيث لم يصمد امبراطور هذه البلاد العريضة أمام هؤلاء المغول ، أتعرفون ما يظنونه عن أنفسهم لعنة الله فى أرضه ، قال محمود غلوش . . فى كل ليلة تخرج فصائل من جنود الحامية وتذبحهم ثم تعود . . سأل الرجل هل رأى أحدكم هذا بعينيه ؟

لم يردوا ، انصرفوا . جاء ثلاثة أثرياء من المدينة لمقابلة مولانا علاء الدين ، عندما خرج اسماعيل إلى بيته لم يكن الليل قد أوغل تماماً ، لاحظ والدهشة تملؤه أن ثمة نساء ينظرن حاسرات من النوافذ ، أمام بعض البيوت ، خرج رجال عجائز تجاوزوا المائة سنة ، ربما مر عليهم عام بأكمله لم يفارقوا حجراتهم ، لكنهم الآن لا يفارقون الطرقات ، ذرات الغبار تتصاعد فى الهواء لم يمتلىء هواء المدينة بمثل هذه الصورة من قبل بل ان هذه الحرارة الشديدة فى ذلك الوقت من السنة أثارت قلقاً وحزناً ، العجائز يهزون رؤوسهم ويقولون ان الله لم ير بعد شيئاً من غضبه للمدينة المحاصرة ، قرب بيته رأى امرأة عجوزاً تمشى ، تتلفت حولها ، المفروض أن يصل ابنها وزوجته أول أيام الحصار من مدينة خوارزم ، أغلقت دونهما الأبواب ولا بد انهما غاصا فى حشد المغول الكثيف يسأل كل من يقابلها ، مشعثة الشعر ، تائهة النظرات ، أمسك معصمها ، سيعودون يا أمى ستفتح الأبواب غداً ، عندما تمدد ، تدفقت موجات التعب تعبره بانتظام ، لماذا يبدو أكثر اهتماماً من غيره ؟؟ تقريباً عاد محمود غلوش إلى سيرته العادية ، أيضاً ثناء الدين ، شمس الدين ، السهر فى حى بنات الخطأ ، هل لقربه من مولانا علاء الدين أم لإحساسه بالخطر لكن الخطر يهدد الجميع .

الكل تضمهم مدينة واحدة ، قالت أمه والنوم يرمى حبات رمل تحت جفنيه . . هل مشى الكفار وفتحوا المدينة ، سكت ، سألت أمه ، قالت أمـه والصباح قـد جاء منـذ مدة طـويلة ، ارحم نفسـك ، أنت تجهـد نفسك . .

تقول أمه وأصبعها يرسم خطوطاً غامضة غير مرئية فوق الحصير . .

عمرك يمضى يا اسماعيل . . خمس وعشرون سنة مـرت على هـذه الأيام التى نزل فيها الثلج كالحجارة من السماء حتى قلنا ان الله يرسل علينا طيره ، وحجارته ، ولدت أنت ، خمس وعشرون سنة مرت على نـزول الثلج ولم تتزوج .

تقول أمه . .

أى بنت تتمناك زوجاً لها . .

قالت أمه . .

الكفار يحيطون بالكل وأصحابك كأن شيئاً لا يجرى حولنا . . فلماذا أنت . .

نظر إليها ثمة جفاف فى حلقة ، عيناه متسعتان كأنهما تردان سؤالها بنفس الكلمات . .

انكمش فى ركن الزنزانة شديدة الضيق ، ارتفع الصياح فى الخارج ، شتائم ، ضحكات ، أيد تصفق ، كم العدد ، ربما اثنان ، ربما عشرة ، توقفت الأقدام ، فتح الباب ، رجل قصير عريض الكتفين ، من فمه خرجت كتلة البصاق ثقيلة لزجة ، لم يتفاداها اسماعيل بسرعة .

يا ابن الكلب . .

هل نقلته الآن ؟؟

هيا

ازداد جسمه انكماشاً ، الكدمات الزرقاء على جلده النحيل تتورم ، الصدر يتفتح ، ركلته قدم فى بطنه ، لم يرفع وجهاً ، وضعوا الشوك فى طريقك يا حبيبنا وسيدنا فلان ، الصخر تحت قدميك ، طردوك من الطائف ، ورموك فى الهجير بالحجارة حتى سالت الدماء من جبينك الصافى فظللتك الغمامة أبد العمر .

لو له أخت لاغتصبناها أمامه وسمع تأوهاتها بأذنيه . .

مقطوع من شجرة . . حتى لا أم عجوز . .

لن يفيد الدعاء ، لن تبدل الأرض ، الأجسام فى الأصفاد ، والسرابيل من قطران والشفرة الحامية تقطعنا ، ولا عاصم من المغول ، فى الليل بعد أن نام فعلا قام فزعاً كما لو أن الرخ نزل فاختطفه . .

وجه أصفر يطل من الباب . .

أجلك قرب يا مخنث . .

* * *

ما الذى يريده بالضبط خمس وعشرون سنة مرت على نزول الثلج شبيه الحجارة وثمة شىء يعذبه لكن ما هو؟ المشى فوق مياه المحيط ؟ الغوص فى باطن الأرض حتى ملامسة قرن الثور الذى يحمل العالم كله ، الانطلاق فى الفراغ بلا رجوع فى القبة الزرقاء ، المشى بين الناس ، فوق رأسه طاقية الآمال والأحلام ، يرى الناس ولا يراه أحد تأمله لأجسام جوارى الأمراء والأحلام . يرى الناس أثيابهن ولا يستطعن رؤيته ذهابه إلى سمرقند ، يسأل الشاه فى خلوته أن يجىء إلى أوترور ، الناس فيها يسمعون عنه ومع هذا لم تكتحل عيونهم بمرآه ، يرجوه فثمة أعمار تنقضى ولا يراه أصحابها وإذ يصحبه يسأله النظر بعين العطف إلى حكامه وعماله فى البلاد ما عاد العباد من رعيته يطيقون صبراً بظلم متولى الحسبة الذى يجلس تحت أضخم شجرة فى البلدة يفرض على كل رأس ما تدفعه حتى الرعاة الذين لا يمتلك الواحد منهم غير ما عز يتيمة ، ربما يريد الوثوب فى الفضاء ، عبوره بخطوة قدم واحد ، يجد نفسه فى بلاد الخطأ البعيدة حيث المدن العظيمة ، القباب العالية كل ما حكى عنه مولانا علاء الدين ، من

يدريه ، ربما الرحيل فى الزمن ألف ألف عام فيرى حال الناس ، وهل يبقى العالم ، وكيف تقوم القيامة وما صوت النفخ فى الصور ، وهدأة الأرض وقد بقيت خراباً يباباً أربعين ألف سنة قبل أن تجىء النفخة الثالثة فى الصور فيصحو الجميع ، آه لو يصل إلى هذا اليوم الذى لن يعرف فيه أمه ، لم يتصور ذلك أبداً ، خيل له انه الوحيد الذى سيمد يده لأمه ، حتى أبيه الذى مات سنين الوباء ولم يره ، سيعرفه ، ياه هل سيكفر ، كيف وعذاب هذا اليوم البعيد شديد ، تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، دائما لا يتخيل أبداً أن أوترور الهادئة ستعرف الحشر لكنه فى ليالى السهر سواء مع محمود غلوش أو فى صحن المسجد عند مولانا علاء الدين ، يبرق خاطر أمام عينيه ، لن تمضى الحياة هكذا ، ترى ما الذى سيحدث بالضبط ؟ لا يعرف ، متى ؟ ومن أين له أن يدرى ، حتى بعد الحصار ، الناس تدور حول نفسها فى المدينة ، الاطمئنان يعود إلى الوجود ، الأبواب لا تزال مغلقة برغم هذا فقد كان الخطر غير المرئى ، وراء الأسوار ، يبدو فى لحظات هائلة ، مخيفاً يخفق قلبه بالخوف على المدينة ، كل رجل ، امرأة فيها ، لكم يحبهم ، يخاف عليهم ، على المبانى ، المساجد التى كثيراً ما ركع فيها ورفع يديه طالباً التوبة من رب العالمين ، عندما مشى فى السوق الكبير ، أمام حان تفتح أبوابها ، يقف سبعة أو ثمانية رجال ،

يعرفهم تماماً ، يضحكون ، ألقى السلام ، بعد عشر خطوات توقف ، التفت إلى الخلف ، رجال من أوترور يقفون عند الحان ، الهواء راقد ، سخونة يقسم عجائز المدينة انهم لم يروا طوال عمرهم مثلها ، لم تنتشر فى الجو إلا بعد الحصار ، أقسم آخرون أن الوباء سيطلق نفسه فيحصد أهل البلد حصداً ، لكن وقفه الرجال ، اتكاءة أحدهم . ضحكة خافتة شىء لا يبين . كأنه يراهم فى يوم هادىء يمر ، قطرات مطر ربيعى منعش ، لحظة من لحظات يوم لم تكن المدينة مهددة فيه بأى بشرى أصفر السحنة ، اندفق الدم من قلبه ، ثم انقبض ، هز رأسه ، دخل بيته وكان المغرب يقترب ، حاراً ، ممتلئاً بالغبار ، سمع أمه تتمتم ببعض الدعوات ، وكان السقف عالياً .

* * *

يا أهل أوترور وسكانها . .

اطمئنوا . . فأسوار المدينة حصينة . .

ولا بد أن يرحل المغول قبل مجىء الصيف . .

فهم لن يحتملوا الحصار . .

اطمئنوا فأسواركم حصينة . .

ولن يقهرها الكفار أبداً . .

* * *

تجمع الرجال حول الراعى ممزق الثياب ، حملقوا فيه ، أطلت النساء ، بعضهن شابات (وهذا يحدث لأول مرة فى أوترور) من النوافذ .

هل رأيتها بعينك . . بعينك يا رجل . .

نعم والله . . وحياة أولادى . .

دخل محمود غلوش بيته قبل أن ينام طلع فوق السطح ، نزل فناء الدار ، فتش الغرف ، صومعة الغلال ، نظر تحت السرير ، تأكد من إغلاق الباب جيداً بالضبة الضخمة ، فى البيت المجاور خيم الضيق على روح ثناء الدين ، أول ليلة يقضيها بلا سهر ، بلا ضحك ، لكنه من الأفضل ألا يخرج ، من يدرى ، ربما طعنه أحد هؤلاء الصغار الذين ظهروا فى المدينة فى الظلام عندئذ يموت ويروح على نفسه .

تخلل مولانا علاء الدين لحيته بأصابعه ، النهار خارج المسجد يمضى قتيلا ، لا أمل فى رجوعه ، ذرات الليل الرمادية تكفنه ، فراغ المسجد يمتلىء برائحة لم يشمها إلا منذ الحصار .

لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . لا يعرف أهل أو ترور حقيقة المغول ، كفار وأى كفار . من يرهف السمع باستطاعته أن يصغى إلى تقلب جسد المغولى فى مرقده خارج الأسوار ، من يتقن لغته يمكنه أن يعرف أى أحاديث يتبادلونها إذا ما نزل الليل أما من يقف فوق سور أوترور فيمكنه أن يميز الشعرة الصفراء من السوداء فى رأس كل ذى وجنتين عريضتين وشارب مدلى وعينين منحرفتين .

همس اسماعيل .

لأول مرة منذ أيام كثيرة يمتلىء الجامع ويفترش المصلون أرض الشارع . .

الليل فى عينى مولانا وديع هادىء رائحة الكافور تطير من بعض البيوت القريبة ، وثمة عطر غريب خفى ينبعث من الحصير القديم الذى فرشت به أرضية الجامع الكبير .

وما أخبار المغول . .

قال اسماعيل . .

قذفوا اليوم السور الشرقى بحراقات النفط . . سلاح جديد لا نعرفه . . لكن عساكرنا لم تمكنهم من طلوع الجدار . .

قال مولانا علاء الدين . .

اذهب واحضر أصحابك الذين طلبوا الجلوس معى . .

* * *

أشارت اليد إليه بعد أن نزعوا القماش المبلل ، الوجه ونفس الابتسامة ، صمغ لزج ثقيل ، الفم ، العينان كل ما فيه ، لا يمكن أن يكون إلا المغولى جنس آخر غير جنسه ، من عالم غير العالم ، لا يعرف شيئاً عن عمره لا يعرف كم يحب أمه ، خفقة قلبه لحظة رؤيته رجل يمشى حافياً يطل الجوع من وجهه ، حزنه الرقيق الغامض لحظة ذهاب الشمس وسؤال تائه ، هل تعود ثانية أم يخيم الليل إلى يوم القيامة ؟؟ لا يعرف بهجته لحظة الانطلاق فى مراعى المدينة ، لا بد أن يبتسم أولا ، يضحك يقترب منه ، ثم يضربه يشتمه ، ولن يتكلم لن يرد حتى لو كانت أمه ، هذا المخلوق لو جاء فى أرض غير الأرض بلد غير البلد ، لو خلق فى دنيا غير الدنيا ، حتى لو عاش فى بلاد واق الواق وراء جبال قاف لو كان يهودياً ، نصرانياً مسلماً كافراً كما هو يعبد الشيطان . . فيا هو الا مغولى يده قصيرة ثقيلة لا تتحرك إلا لتشير أو تتكلم .

من ؟؟

أحمد سلار . . عيناه ، جنديان ، فم يقطر دماً ، دفعه المغولى والصمغ يقطر من شفتيه ، قربوا رأس اسماعيل منه ، ما الذى يصدره لسان أحمد ؟؟

حشرجة ، وسوسة ، لا يعرف ، آه لا تدع صوتك الواهن يطلب منه ما لا يعرف ، شفرة بيضاء حامية قصيرة .

افتحوا عينه . . افتح يا كلب . . لا بد أن ترى ما سنفعله بك . .

قلدت رجال المدينة كلهم فى الميدان ، لكم سخط عليك العجائز من يقلدك الآن ؟ تروح الشفرة وتجىء تمسك بها اليد الغليظة بين عينى اسماعيل وفخذى أحمد سلار من الجسم الميت خرجت صرخة كأنها ليست منك . .

قل لهم يا اسماعيل . . قل لهم أين السد . . آه السلاح . . أحمد . . انقذنا . . كل . . آه . .

افتحوا عينيه . . انظر . .

امتدت يد المغولى بقطعة اللحم الصغيرة الحمراء الرخوة تهزها أمام عينيه ، ثبت السواد فيها ، تدفق الدم نافورة بين ساقى أحمد سلار ، وكبسوا الجرح بالزيت المغلى والفلفل .

* * *

سكان أوترور يا كفرة . .

يا من لم ترعوا ملة ولا حرمة دين . .

يأمركم خان المغول العظيم بالخروج . .

الأغنياء الفجرة والعامة الأنجاس . .

لن يبقى أحدكم فى المدينة . .

أخلوا البيوت من كل حى حتى الحيوانات . .

توجهوا إلى الخلاء خارج الأسوار . .

لا بد من إحصائكم يا من ختنتم دين الله . .

وإثبات ولائكم لبلاء الله وسخطه عليكم . .

خاقان المغول المعظم . .

اخرجوا . . اخرجوا . .

* * *

فى لحظات العصر الصفراء البعيدة ، يسمع مولانا علاء الدين يجتر ذكرياته ، زمان الوباء فى أحد المدن البعيدة التى قضى فيها مولانا سنين عديدة كان المرضى يتألمون لحظات بعد ظهور أول أعراض المرض عليهم ثم يموتون ، كانت الجنازات تمشى صفوفاً ، صفوفاً حتى أنهم حملوا كل عشرة موتى على عربة يد واحدة وكادت المدينة تخلو من سكانها حتى انه كان يمشى ساعات فى شوارعها وطرقاتها حتى يلتقى بآدمى ، ورأى بعينيه مياه المطر تنزل وتنبت الحشائش فلا تجد ماعزاً تأكلها ولا رعاة يقطعونها ، وعندما حزم مولانا ثيابه واعتزم الرحيل منها ، وعندما أصبحت المدينة وراء ظهره ، التفت إليها رأى هواءها وقد امتلأ بالوباء ، فى هذه اللحظة تماماً أدرك أن آلاف الناس ماتوا

بلاسبب ، وهل حقاً ماتوا شهداء ، وما قيمة أن يموت الإنسان شهيداً أو غير شهيد ، يضحك مولانا ، يقول انه عندما فكر فى ذلك لعن الشيطان وحمل حزمة ثيابه وراء ظهره ، وأطلق صيحته فى الهواء العريض . .

قال مولانا أنتم لا تعرفون المغول كما أعرفهم أنا ، لن يكتفوا بإبادة عساكركم لكنهم يقصدونكم أنتم ، أنا أحب أوترور فقد عشت فيها عمراً كاملا ، ولا أطيق أن اتخيل ما يجرى فيها لو . .

قال أحمد سلار . .

أنت تعرف أن أسوارنا قوية . .

قال ثناء الدين . .

يقف عليها عشرون ألف جندى . .

أسند مولانا علاء الدين ذقنه إلى راحة يده ، لكم ساح فى بلاد الله بطولها وعرضها . . لم يمر عام إلا وطاف بيت الله والتقى بأصحابه الذين يطوفون بالعالم كله ولا يلتقى بهم إلا مرة واحدة فى السنة ، وصل إلى اطراف العالم حيث الليل سته شهور والنهار ستة شهور والكلاب تجر المركبات على أرض كلها من الثلج ، عاش فى مدن بعيدة يقضى الانسان إليها أربعة شهور فى بحر مالح لاعمار فيه ، فى شبابه خاض صحراء الجوبى ، عاش بين المغول زمناً عرف أى لسان يتكلمونه ، رافق جيوشهم التى أغرقت بلاد الصين .

لا تعرفوهم . . ليسوا بشراً . . تماماً كالطاعون أو الفيضان أو الحريق .

في صحن الجامع ارتعشت شعلات الضوء الخافتة ، الليل هادىء ، صمت كماء الورد يكمن فى زوايا الجامع ، قال اسماعيل . .

الناس كلهم يصدقون هذا الرجل الذى رأى منذ ليال النار التى قال رسول الله (ص) أنها ستخرج آخر الزمان قبل القيامة . .

قال مولانا علاء الدين . .

أعرف . . ولهذا امتلأ الجامع بالمصلين أمس واليوم . .

* * *

لا يصدق أحدكم ما قاله بعض الكفرة .

انهم رأوا مغولا فى شوارع المدينة الحصينة .

اطمئنوا يا أهل أوترور . .

أسوار مدينتكم لا تنفذ منها نملة إلا بعلم جندنا . .

لا يصدق . .

* * *

خرج مولانا علاء الدين متوكئاً على ذراع اسماعيل ، رآه الناس ، انحنى بعضهم يقبل يده ، جال بعينيه فى الساحة الواقعة أمام الجامع ، الرجال يجلسون أمام الدكاكين المفتوحة كأنهم لم يفارقوا أماكنهم أبداً ، تزاحم الناس

حوله فى الفراغ انعقد غبار رمادى رمى ظلالا خفيفة على الأرض ، صاح رجل . .

ستقوم القيامة يا مولانا . . ظهرت نار آخر الزمان . .

صاحت امرأة عجوز . .

الشمس تطلع من الغرب وتنزل فى الشرق يا مولانا . .

ارتفعت همهمة الواقفين ، انقبض صدر اسماعيل ، حقاً هل تشرق الشمس من نفس المكان ، المدينة مغلقة ولا يدرى أين يمناه من يسراه ، ارتجفت لحية مولانا علاء الدين ، أصغى إلى دعوات الواقفين ، تكاثر الجمع حتى كاد الطريق أن ينسد ، تساءل أحد التجار الغرباء الذين لم يستطيعوا الرحيل إلى بلادهم ، هل ستقوم القيامة ولن يروا أولادهم وأسرهم ، اغرورقت عيونهم بالدموع .

صاحت امرأة . .

هل ينصرنا الله على يأجوج ومأجوج اللذين سلطهما الله علينا . .

هز مولانا رأسه . .

وما النصر إلا من عند الله . .

* * *

صرخ رجل مغولى طويل القامة ، ربما صاحب مركز . .

حتى شيخك اللعين لا تعرف أين ذهب . . كل زملائك وأصحابك قالوا انك لم تفارقه طوال عمرك ، يا نحس . . والآن لا تعرف أين هو . . لو نفخنا فيك لطرت . . وترفض الكلام . . اسمعوا . . مولانا الخاقان سيرحل بعد أيام . . انتهوا منه بسرعة . . بسرعة .

ثناء الدين صديقه صاحبه القديم ، قصير ، أصفر الشعر ، كان اسماعيل يغطى رأسه دائماً بطاقية يقفون فى عرض الطريق ، صفاً واحداً ، يحددون نقطة ينتهى عندها جريهم ، ينظرون بطرف عيونهم إلى بعضهم ، يقرأون الفاتحة ، إذ ينتهون من التلاوة ينطلقون .

هيه . . وصل ثناء الدين أولهم . . يمر شيخ المقرأ ، يكفون عن اللعب ، عيونهم إلى الأرض ، يستديرون صامتين ، يبتعدون ، إلى أين ؟؟ الساحة الكبيرة تحت سور المدينة ، الوقت ما بين العصر والمغرب ، الصمت بحيرة بلا قاع ، الهدوء كمناحة عاطت فيها نساء المدينة كلهن . .

أدخلوا محمود غلوش بعد لحظات ، دفعوا إلى يده سيفاً فى يد ثناء الدين سيف آخر .

بدأت يد مغولية ترتفع وتنزل على ظهر اسماعيل ، ضرب هين لين ، يرجف عموده الفقرى ، لا بد أن تظل عيناه مفتوحتين حتى يرى العراك حتى النهاية . . فجأة صاح ثناء الدين . .

قل لهم أين السلاح وذهب المـدينة . . انتهت أوتـرور وسنموت كلنـا يا اسماعيل . . لماذا تسكت . . لا فـائدة من صمتـك . . تكلم . انتهت أوترور . .

* * *

فى حى الصيادين نشب عراك يا مولانا . .

لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . . اللهم اكفنا شر الحصار .

الرعاة يسندون ذقونهم إلى أياديهم ، أغلقت الأبواب وما عاد فى الامكان الخـروج إلى الخلاء ، مـر أحد صيـادى الوعـول تعثر فى قـدم راع كـانت ممدودة . .

تمشى كالأعمى . .

الشارع اشتراه أبوك . .

احترم نفسك ، يعنى من أنت ، التحـما بالأيـدى قام الـرعاة ، بعض الأغراب عن الحى دخلوا العراك ، نزل رجال من بيوتهم ، تلفتوا حولهم ، يندفعون فجأة ، صرخ الأطفال ، صاحت النسوة ، فى حى النساجين نشب عراك آخر ، بل ان بعض العمال الذين كانوا يبنون بيتاً كبيراً لأحد أثرياء المدينة ، فجأة راحوا يهدون ما يبنونه ، يقذفون المبنى بالطوب ثم تعاركوا مع بعضهم حتى سالت دماؤهم . .

لا حول ولا قوة إلا بالله . . كأن جلود الناس ضاقت عليهم . .

***

أبداً لن تعود طرقات أوترور ، البنايات فى الصباح غير ما تراه فى العصر ، فى الليل ، أبداً لن يمشى عبر طرقات المدينة إلى حى بنات الخطأ ، خاصة فى أسابيع الحصار الأخيرة ، عندما عرف كل شاب فى المدينة أنه يستطيع أن يضاجع فتيات فى سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة فى بيوت ، الخطأ ، أبداً لن يجلس على المرتفع خارج المدينة يرقب نزول الشمس وراء الأفق البعيد ، الجند يروحون ويجيئون تحت الباب يستعدون لاغلاقه .

ندى الصباح يبلل الطريق ، فرسان التركمان يرقبون النساء عند النواصى ، لهواء البلدة رائحة العنبر تهمس أمه . . وصل تاجر من الهند ، اخرج معى لأشترى منه قماشاً أسود خفيفاً ، فى ساحة السوق يجلس يرقب بعينين قلقتين ، البضاعة يقلبها الزبائن . .

كأن هذا جرى فى غير أوترور ، صيحات الصغار ساعة الصباح فى بلد آخر ، زعيق الرجال فى عالم غير العالم وحتى مولاه علاء الدين ، أين هو ؟؟ ضاعت المدينة ، نكست المآذن ، نكحوا الطرقات ، وسأل الخاقان أحمر اللحية رجاله عند رؤيته المسجد الكبير . .

وما هذا القصر ؟؟

فقالوا له هذا بيت الله ، عبر الباب الـواسع بحصـانه الأبيض المثقـل بكنبوش من الذهب . .

هل وجدت حقاً البنايات ؟ منحيات الطرق ، المشربيات ، وإلا فأين مضت هذه الأيام ؟؟ أين راح المشى فى العصر ، ساعات النهار ، القراءة ، انتظار قلب حلو فى رقة الندى ، أين ما تخيله ، اين ما كان يحلم بها تؤنس وحدته فى الليالى الطويلة الباردة المثقلة بثلوج بيضاء تنزل هشة طرية من وراء نافذة البيت الصغيرة ، أين الصوت الذى تمنى لو ناداه ؟ أين منية القلب ؟ أين لهفة الروح إذ تـطلب منه أمه أن يتزوج ، نعم . . لكن من ؟ أين القلق الغامض ؟ ما الـذى سيجرى غـداً ؟ أين فرحـة القلب لحظة لقـاء صديق غاب ، أين الحزن عندما مرضت أمه ، ورفعت إليه وجهاً كله تجاعيد وعينين مستسلمتين فيهما وداعة وحنان ، نخلة تميل بجذعها ، كسيرة بـلا طرح ، لحظتها أدرك أنها عجوز ، وأنها قضت عشرين عاماً بلا زوج ، ولم تخرج من البيت إلا مرات قليلة ، بل أين أمه ؟؟ أين حبل الحياة ؟ أين عصبها ، أين صوتها أين ترقد ؟أين هى أين ؟

* * *

قال المغولى طويل القامة ، صوته هادىء لا يهتز . .

اقطعوا أصابعه . . اجتـزوها بـالموسى . . اسحبـوا لتراً من دمـه واكبسوا مكان الجروح بالفلفل . .

توقف لحظة ، اقترب منه انحنى حتى كادت ملامحه المغولية أن تلامس الوجه النحيل شبيه الشمع ، أنت صغير ونحيل لا تحتمل .. ولو قلت لنا ما نريده فيعدك مولانا بتحقيق كل ما تريده ولن يقضى عليك ، ثم لماذا تحتمل أنت كل بلاء أوترور .. ومع ذلك فسأقطع أصابعك .. وهذه بداية .. ليس الآن .. لكن بعد حول قصير .. وعلى العموم فكر فى كلامى يا اسماعيل ..

***

كأن العيون ترى السماء والفراغ أول مرة ، ارتفع صوات النساء والبنات والأبكار ، خاضت خيول المغول فيهن ، التف سوط ذو سبع شعب حول وجه امرأة قصيرة بدينة ، وجهها ملىء بالوشم ، يبدو أنها لم تخرج عمرها كله من اوترور ، لمعت سيوف قصيرة .

لم يعرف الأطفال المكدسون فوق الارض الصغيرة إن كان النهار يتقدم أو يتأخر ، لم يكف صراخهم ، وترجرجت الدوائر السوداء فى عيونهم ..

أين الأم ، أين الأب ، الأخوات ، رائحة البيوت ، دفء الليل وحرارة القوم ، صاح الأسير المسلم فى الرجال ..

ـ من منكم لديه جواهر أو سلاح لم يخرج به .. فليخط خارج الجمع ..

صاح أسير آخر . .

ـ البنات الأبكار هنا . . النساء هنا . . العجائز . .

جالت العينان الضيقتان فى الجمع الذى تحول إلى كتلة عويل خانق مر كالوباء ، كشفرة تلامس قلباً ما زال يخفق ، نزل القائد المغولى ، ينظر إلى الرجال الواقفين : أشار إلى عدة شبان تقدم منهم جند ، أخرجوهم ، فى السماء يتراكم غمام أسود ، الحرارة تتصاعد من الأرض وتنزل من الفراغ مع أن الصيف ما زال بعيداً ، أشار القائد المغولى إلى شاب نحيل الجسم ، كأنه لم ينم منذ أيام عديدة سأله عن اسمه ، طلب منه أن يرفع صوته ، اسماعيل ، صاح صوت الأسير المسلم . .

ـ اظهروا جواهركم وسلاحكم . . لا تخفوا شيئاً وإلا . .

* * *

بيت من طابقين ، رمادى ، تحته ، دكان مغلق ، آخر ما رآه من المدينة ، أثارت الأقدام العديدة سحابات من الغبار ، لن ينسى وجه أمه لحظة أن شدوها من جانبه ، حتى لو مزقوه قطعاً أكبرها فى حجم حبة الفاصوليا ، وحملوه للرخ ونثروه فوق ألف بلد لم تصرخ ، لم تبك ، ثقة غامضة فى وجهها تجعلها على يقين أن ابنها سيتدخل ، هب هواء كالماء الساخن الدسم يكنس ما فوق الرؤوس ، كلبوا أيديهم ، كم العدد ، عشرون ؟؟ لم يدر ، أين أمه ، حتى لو وقف فى الصفوف الأولى لن يراها بوضوح ، أسوار أوترور يتصاعد

منها الدخان ، مهدمة مبقورة ، تمنى لو رآها لحظة ، ثانية حتى مولانا علاء الدين أين هو ؟؟ فى الجامع ؟؟ أم ركب حماره ، ولى وجهه إلى مدينة أخرى ليبدأ حياة أخرى ويقضى فيها عمراً مديداً ، آه يا مولانا علاء الدين ، ضاعت أوترور ، وذاب العمر كرغوة صابون فى صحن ماء ، قطعة ثلج صغيرة رموها فى بركة ، لحسة حلوى امتصها صبى ، ورقة شجر جفت وهرستها أقدام مغولى ، طير شمع أزرق علا حتى اقتربت من الشمس فانصهر ، خمسة وعشرون حولا كاملا اندثرت فى أوترور . .

***

إلى جند الخاقان الذى وهبه الله ملك الأرض ومن عليها . . أباح الخاقان المعظم ونزور برجالها ونسائها وأطفالها وبيوتها ومخادعها ومخازنها وطعامها ومجوهراتها وأبسطتها وأثاثها وخضرواتها . .

وفاكهتها وجوامعها وقصورها وكتبها ومحازنها وشوارعها وخاناتها ومعاصرها وكل من فيها . . جوارى وعبيد وسادة . .
اثنى عشر يوماً كاملا . .

***

اسماعيل . . سنضعك فى حجرة بها ألف عقرب . . تكلم . .

وجه آخر ، ابتسامة مفتعلة ، شارب رفيع مدلى ، أسنان صفراء عينان

ضيقتان منحرفتان ، كل ما فيه لو ابتهج ، لو تجسد ، أنا الأمان ، أنا الأمان ، فلن يؤكد إلا مغوليته . .

قل لنا أين السلاح . . أين ذهب المدينة الذي أخفاه درويشك العجوز . . طول الليل وآلام الفلفل الذى كبسوا به يده المبتورة ، وعدم الرقاد على الأرض التى فرشوها بماء وسخ ، تبرق بقايا أوترور أمام عينيه ، احترقت أوترور ، هاجر أو سافر أو مات مولانا علاء الدين ، لن تقوم البيوت بعد ذلك أبداً أمر قاطع لا شك فيه ، لن يلمس الجير الأبيض طوب الجدران الرمادى فرحاً بعودته رجل حقق أمنية العمر وزار بيت الله تعالى ، لن ينطلق الباعة فى طرقات المدينة منادين على الليمون . . الخس . .

لن يهتز رد فى شابة حلوة ترقب الناس من وراء حجابها ، لن يتبادل الرجال انفاس النرجيلة إذا ما هوى الليل فوق المدينة ، أبداً لن ترتفع ضحكات الشباب . أوترور ملعب لكلاب نزلت من البرارى . . من التلال أفقدها اختفاء الانسان عقلها فانطلقت تلتهم كل لحم طرى .

* * *

. . مولانا الخاقان سيجعلك ترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت . . مائة من الجوارى الأبكار . . وقصرا فى أى بلد تشاء . . أنت تعرف كلام الملوك . .

اسماعيل . . ملعون إلى يوم القيامة . . ترانا نموت ولا نتكلم . قل لهم أين الذهب . . ؟ قل لهم أين السلاح . . . ؟

سبه احسان قلش قبل أن يخلعوا لسانه بالكلاليب من أساسه ، فى الحجرة المغلقة فوق أرضها المبللة بالمياة ، بكى ، سنوات طويلة لم تتدفق دموعه بمثل هذه الغزارة عدا ليلة بعيدة صحا فيها من النوم وكان الصباح ما زال هادئا ، باعة اللبن لم ينادوا بعد طوال الليل يحلم حلما لم يكف فيه عن البكاء ، حاول أن يتذكره ، لم يعرف ، حاول مرة ثانية لم يدر ، شتمه احسان قلش ، سبه ، آه للعمر المنقضى ، لماذا يتحمل كل هذا ، أهى رفقة مولانا سنين طويلة ، يتذكر الآن مشيه فى طرقات المدينة ، لا يختلف عن أى منهم ، انها نبوءة المنجم العجوز التى رددتها أمه طويلا . . ابنك سيرى أمورا عظيمة حتى لا يرى تقلص وجه ، فليعرف المغول كل شىء فليقل لهم أين الصناديق ، ما المهم فى ذلك استباحها جند الخاقان اثنى عشر ليلا واثنى عشرا نهارا .

قال مولانا علاء الدين . .

يتفنن الملاعين فى إبادة سكان القرى التى يفتحونها ، فإذا ما قتلوا السكان جميعهم أحرقوا مخازن القمح حتى يموت جوعا من لم تقطع رقبتهم ، وفى مرة جعلوا رجلا مسلما يؤذن للصلاة من فوق مئذنة القرية التى قتلوا من

أهلها عددا كبيرا . . عندئذ خرج من تبقى منهم ظنا أن المغول قد رحلوا فذبحوهم عن آخرهم .

قالوا العجوز يخرف . . أسوارنا حصينة . .

* * *

لو نام ، نام ، الأيام المنقضية ، بعد كل استجواب يلقونه فى الزنزانة ، يستعيد ملامح الذين عذبهم امامه ، فرح خفى ، بهجة لأنهم لم يستطيعوا انتزاع كلمة منهم ، الآن خفتت الاصوات تماماً ، ترى كم من البيوت تبقت ؟؟ وكيف استباحوا المدينة لا يذكر شيئا فيها ، حتى موقع بيته نسيه تماما ، حتى ملامح أمه العجوز باهتة مطموسة ،كأنه لم يرها غير مرتين فى حياته . وجوه لم ير أصحابها غير مرة أو مرتين تبدو له واضحه كأنهم أمامه ، والمئذنة التى تطعن الهواء بمقدمتها الرفيعة المدببة ، قائمة أم هوت ؟؟ كان كوب اللبن ممتلئاً ، آه لو عرف أين رحل مولانا علاء الدين ، يظهر بعد ايام فى مدينة بعيدة لم ينلها المغول ، يعيش بها عمرا كاملا ، يصبح واحدا من أهلها ، ينظرون إليه فيتذكرون أنهم كانوا يرونه من الصغر ، هل ثمة نفير بعيد ؟؟

أى صوت يخترق مثل هذه الجدران ؟؟

أهم اشخاص يتكلمون . .

ضحكات بعيدة ، غريبة مختنقة ، ربما البعد ، ربما الليل النهار طنين غريب ، ملعون . . ملعون . . لماذا تسكت وقد انتهى كل شىء ؟؟

مالا عين رأت . . ولا اذن سمعت يا اسماعيل . .

يزداد الطنين ، لزاجة الأرض المبللة ، كتفاه ليستا منه ، يداه ثقيلتان ، صوت خطوات ثقيلة ، ربما يقتربون ، تجاوز زنزانته واختلط كل شىء بالطنين الغريب الغامض ، وكانت الارض لزجة وثمة طرق خفيف طرى فى الرأس يجعل نومه بعيدا نائيا . .

مناجاة ليلية
تحت هدير المدافع

نشرت فى جريدة « العمال » ابريل ١٩٧٢

قال الرائد عادل :

ــ أغار الطيران على الاسفلت ، قطع الطريق . .

تضيق عينا مجدى ، شرائط الحديد القاسية تضم الملجأ ، يرى شريان الطريق يتفجر ، يتفحم الضوء ، الشظايا تلهب الهواء ، الدانات غير المرئية لحظات رحيلها القصيرة ، يسند يده ، فراش الرائد عادل صلب ، ضيق ، لا يتسع إلا لشخص واحد ، منضدة صغيرة بيضاء باهتة كالعزلة ، كوب بلاستيك وردى ، خرائط ميدانية ، مصباح معلق لا تنفذ ذرات ضوئه قط ، وإلا تحولت إلى دليل للهلاك المبين ، كيف يقضى الليل

هنا ، يطرق الرائد عادل ماداً يديه فى اتجاه الارض ، قليل الكلام ، منذ بدأ زيارته لم يتبادلا إلا ألفاظا قليلة ، مشاعره ضنينة ، ترحيبه موجز ، هل سيقضى الوقت كله معه ، غدا ، ربما بعد غد ، يضيق مجدى بصمته ، بداية النهار لا تتسق مع نهايته ، يرى ميدان التحرير فى الصباح فراغا شفافا ، العربة الزرقاء الكبيرة ، مفارقة القاهرة ، النخول إلى بطن الصحراء ، الطريق ممتد صارم يشير إلى مركز السماء . وعدٌ غامض بالوصول الوشيك ، لكن العجلات لا تكف عن طيه ، مجدى يرى شوارع الاسماعيلية هياكل صمت ، سكون خبيث .

قال الضابط المرافق : « لو بدأ القتال الآن سترون الكثير » « ستكتبون عن انفعال حقيقى بالخطر » رجف قلبه ، مال زميله هامسا ، « أفضل لو انقضى اليوم هكذا » ، سأل مجدى ، أهى الزيارة الأولى ، قال صاحبه : « الأولى لا تحسب ، زرنا التل الكبير ، أول مرة أدخل الاسماعيلية » ، قال آخر متطلعا حوله بقلق : « هل تنطلق صفارات الانذار قبل مجىء الطيران » ؟ ، بقى سؤاله معلقا ، أصغى مجدى منتظراً سماع انفجار ، رؤية طائرة محلقة ، فى القاهرة ، فى صالة الفندق الصاخبة بالأصوات ، بروائح الطعام ، البارفان ، يبدو الحديث عن الجبهة بين أصدقائه الصحفيين والكتاب أمراً مشوقا ، يتحدث صابر دائما عن أخيه ، ينقل عنه ، يصغون حول الموائد الأنيقة المثقلة بزجاجات

البيرة ، كؤوس البراندى الصغيرة ، الساندوتشات ، مناديل الورق ، يحاولون رؤية عالم مختلف ، واقع مغاير يصل إليهم عبر البيانات العسكرية جافا مبتورا ، دقات التيكرز ، هل يعرف الرائد عادل كيف يعمل التيكرز ، ما أبعد صالة الفندق ، يراها الآن مجدى بلّورية متألقة ، لا ينصرفون قبل الثالثة صباحا . من نوافذه الضخمة تمرق خيوط الضوء ، أحدث موديلات السيارات ، من بعيد يرحل النيل رحيلا أبديا ، لابد أن السيارة فى القاهرة الآن ، تأوى فارغة إلى الجراج ، يفكر كل منهم فى عناوين المقالات ، « **الذهاب إلى المطهر ، العودة من المطهر ، تقرير من الجبهة ، أيام فى الجبهة** » ، يجلسون إلى الصديقات ، يتحدثون عن الموقف بعد الزيارة ، رؤيتهم لليهود ، الطيران الذى لا يهدأ ، لا ينزل الأرض أبداً أربعا وعشرين ساعة ، كيف واجه كل منهم لحظات الخطر ، أدركته حسرة ، لا يدرى متى سينزل المدينة ، فى أول النهار انقبض قلبه ، رأى الجنود يمشون متمهلين ، يتطلعون اليهم ، يمضون ، هناك ما هو أكثر أهمية من الالتفات إلى مجموعة كتاب وصحفيين ، قال أحد زملائه : « أغطية الرأس عادية ، الجنود فى الصور التى نراها يرتدون الخوذات » ، مجدى يعض شفته ، ربما يتحدثون الآن عنه « لسوء حظه طلب زيارة موقع مدفعية » ، (الموقع بعيد ، قطع الطريق بعد وصوله) ، يقبض حافة الفراش ، لو يتحدث عادل ، عيناه تنظران فى اتجاه مستقيم كالفوهة ، هذا

السكون لم يصادفه أبدا ، يتسق تماما مع ملامح الرائد عادل ، مجدى يرى حجرة نومه ، اغلاقة النوافذ ، الستائر المسدلة ، الضوء ناعم فى الممر الخارجى ، تتسرب ليونة الفراش إليه ، يغوص فى عالم طرى لا يعود منه إلا فى العاشرة صباحا ، أو الحادية . .

يتصل رنين التليفون .

يغير مجدى جلسته ، يعقد يديه أمام صدره .

ـ آه . . بالضبط . . اسمع يا سيد ، قل للميس أن يرسل « نمرة » عشاء زيادة .

عندى ضيف . . آه ، قل لهم لا داع لإحراجنا . بالضبط .

سنصورك وتظهر فى الصحف .

يفارق التليفون ، طيف مرح فى عينيه ، بشارة لحن يولد ، مقدمات خبر فرح ، سحابات دخان فوق مواقع العدو تقول لعيون المقاتلين ، جاء الضرب فى الصميم ، يتناول وسادة كاكية اللون ، من حقيبة جلدية يخرج فوطة حمراء ، منقطة بدوائر صفراء ، وزرقاء . . ينقل صحفا ودفترا كبيرا . .

ـ تفضل . . يمكنك النوم فى أى وقت . .

« أى نوم » كلماته لا تزيل الحواجز ، إنما تدعمها ، الرائد عادل يغطى دورقا زجاجيا ، مجدى يرى السيارة تقف فى الميدان ، ينزل زملاؤه ، على وجوههم إرهاق سفر ، تدور عيونهم .

- أنا عادة لا أنام الآن . .

- آه . . خذ راحتك . .

تضايقه بساطة اللهجة ، أين هو حتى يخاطبه هكذا .

- وأنت ؟؟

يستدير الرائد عادل .

- لا وقت محدد . .

يسرى طنين ، دفعات هواء باردة مجهولة المنبع . .

- مضى عليك وقت طويل ؟

- أين ؟؟

- فى الجبهة . .

- سنة وسبعة شهور . .

سنة وسبعة شهور هنا ، تسعة عشر شهرا ، إذن ليضغط مخاوفه ، يحلم بالعودة سالما بلا خدش .

تبـدو حركـاته ريـاضية متسقـة ، هل يتسـع الوقت هنـا لمـارسـة الرياضة ؟؟

قال الرائد عادل ، إنه لم يمارس الرياضة بشكل منتظم إلا بعد دخوله الكلية الحربية ، الرياضة الوحيدة التي أحبها طوال عمره ، المشى ، أحيانا يشرع فى المشى وحده من مصر الجديدة حتى المعادى ، يسمى هذا اختراق الضاحية .

- أتمشى المسافة كلها بمفردك ؟؟

يصغى عادل ، أصوات لا يسمعها مجدى ، عبثا يحاول التقاطها ، يخشى انقطاع الحوار .

قال عادل ، أنه يلتقى أحيانا بالجيران فلا يعرفهم ، أيامه فى القاهرة قليلة ، أصحابه كلهم من الـدفعة تفـرقوا ، البحـر الأحمر ، أسـوان ، السويس ، أحدهم فى موقع لا يبعد إلا كيلومترات معدودات ، لم يره منذ أربعة شهور ، يحن إليه يود رؤ يته ، ميعاد إجازة كل منهما مختلف .

مجدى يبدى اهتماما ، اللقطة انسانية ، مادة جيدة لموضوع جذاب ، بالتأكيد لم يخرج بمثلها واحد من زملائه ، الآن . . يدثرهم ليل القاهرة ، بعضهم يغسل وجهه بماء يتدفق من صنبور فوق قمته دائرة حمراء ، البخار الفاتن يدغدغ الوجنات ، مرة أخرى يمتد غطاء الصمت . .

الساعة الآن التاسعة . .

تدور أصابع عادل حول بعضها . يستمر صمته .

ـ الليل هنا دنيا قائمة بذاتها ، سواده جدران تتوالى بلا نهاية . . فعلا النجوم كثيرة كثيرة جدا ، أين تختفى عندنا فى المدينة .

لو نظرت طويلا لا مكننى أن ألمح الفروق بين النجوم ، لكل نجم شخصية ، تماما كالبشر . .

يبتسم عادل . .

بعد لحظات ، قال إنه يكره الليل . .

يتصل رنين التليفون معدنيا حادا ، يمسك ورقة ، يتحسس جيوب صديريته ، يخلع مجدى غطاء قلمه . .

ـ نعم . . نعم . . تمام . . شكرا . .

يضيق مجدى بجمود الملامح ، يحاول النفاذ إلى خبايا الموقف ، ربما يخشى ازعاجه ، يخطو عادل فجأة ، يخرج ، يغوص ثقل داخله ، مـاذا يجرى ؟؟ لم يخلع حذاءه حتى الآن ، « رأى صالة البيت ، قمم الأشجار فى الطريق ، مد أصابعه ، يفك الرباط ، لكن . . ربما اضطر إلى الخروج ، يعود بعقده ، يبرد الصمت ، ضجة بعيدة !! بعد أسبوع ، فى مثل هذا

الوقت تماما ، بأى مكان سيلقى نفسه ، ليلة فاسية ستزوده بحكايات ، مواقف لن يمل ترديدها ، ربما تدخل سهام إلى صالة الفندق الآن ، تحتوى البهو الفسيح بعينيها ، تمد الخطو ضاحكة ، يقوم صبزى ، فتحى ، تزيح الشال الأسود والمحفوف بخيوط لامعة ، تسند ظهرها إلى المقعد الوثير ، تنتبه فجأة « الله كنتم فى الجبهة » . . يقوم مجدى ، يروح ويجىء فى الملجأ ، دبيب خطى رفيعة لا يدرى مصدره ، يقشعر جلده ، فئران ؟ كلماتها تأتيه هنا ، « احكوا لى شفتم ايه » ، تسكت قليلا ، « آه والنبى نفسى أروح الجبهة » ، « نفسى أروح الجبهة » . . يبدو له الأمر مثيراً للضيق ، فى الوقت نفسه يود لو ترقبه الآن ، تعرف موقفه الصعب . ليست هى فقط ، صديقاته فى النادى ، زميلاته يرى الدهشة الممزوجة بالإعجاب فى عيونهن .

يدخل عادل ممسكا بأوراق ، هل خرج بها أم بدونها ؟؟

- طيران فوق الضفة الشرقية . .

- إسرائيلى ؟

تنبه مجدى إلى حركة جسده مع خروج اللفظ .

- طبعا . .

قال عادل : لم يحدث احتراق حتى الآن ، قال إن الطيران بدأ مخيفا فى البداية ، لكن العادة تكسر حدة الأشياء كلها ، حتى الموت ، الآن . . يختلف الأمر ، سكت ، قال إنه لا يهوِّن من خطر الطيران ، ضحك ، إنه سلاح سافل تعودوا عليه ، قال عادل إن الظلام مكتمل فى الخارج ، هذا أفضل ، القمر بغيض هنا ومكروه ، معه ينشط الطيـران ، تبدو ليـاليه طويلة حادة كالزجاج المكسور ، قال عادل : الغريب أنه فى أشد لحظات الخطر ، تبرق مواقف غريبة ، إذا تأملها الانسان فيـما بعد ، تعجب ، تساءل ، كيف لم أع من حياتى إلا هذا الموقف بالذات ، عند خروجه الآن ، تذكر موقفا لم يستغرق إلا ثوان ، عند دخوله المصعد منذ ثلاثـة شهور ، رأى امرأة قاسية الملامح انه لا يعرف سكان البيت ، ربما جـاء سكان جدد فى غيابه ، عندما هم باغلاق البـاب ، سمع صـوتا نحيـلا ينادى ، لحظة يا أفندى ، لحظة يا أفندى ، دخل طفل حافى القدمين ، يرفع ذراعا صغيرة إلى أعلى ، ليدفع التراب عن أطراف جاكتة زرقاء ، أزرارها نحاسية صفراء ، يحف ياقتها خط أبيض غليظ ، قالت المرأة هناك سلم خلفى ، قال الطفل ، ماعلهش ياست ، وكأن صوته غيمة قاتمة ، يوم شتوى يكسو المدينة ، مع حركة الصعود البطيئة تنسال الظلال ضوء يقتـرب ، يبتعد ، يتسـع فمه الصغـير ، دهشة بكـر حقيقية ، رقبتـه نحيلة ، أصبع يده يمكنه الالتفاف حولها ، احكـام أسارهـا ، فى عينيه

ارهاق ، انكسار طويل ، قال عادل أن يداً خشنة قبضت قلبه ، وخز لم يأته لحظة ذهاب ثلاثة من رجاله ، رأى اللحظة ذاتها ، جرح كونى ، عيناه تدوران ، قطعتا زجاجٍ بارد ، جنوده ، ينَظرون ، وصمتهم دهشة أولى ، حيرة عصور نائية البعد أمام الرحيل المفاجىء ، كيف حدث . هل ، أحقا ، لو ، لو أن . . غللهم أسى ، ناء بجسده ، جثا ، يداه غصنان يـابسان ، بـلا عرق أو عصب ، يفـك أزرار الجيب العلوى بصديـرية الجندى الأول ، يخرج لفافة فضية تحوى قطعة بسكويت التفاتاته ، لون وجهه ، تماما كأثر قديم تحـرك بعد دفن آلاف السنـين ، على مهـل بدأ يأكل ، يمضغ البارود والـدم والاشتباكـات الليلية والـزعيق الغامض ، وصوت الجنزير فوق الرمال والثوانى الحبلى بخطر ، لحظات لا تنتمى إلى زمن مفهوم ، إلى دنيا فيها بشر ، أما الأسى فداهمه بعد حين ، لم تصده دشمة ، لم تدكه حصون ، مرأى صبى يجهل اسمـه ، أضناه ، أرهقـه بالذكرى ، بدأ يرثى رجاله ، لم يفتح نوافذ حجـرته ، زعق بـأسمائهم واحدا ، واحدا ، واحدا ، استعاد الملامح . حركة العينين الخاصة بكل منهم ، فى عربات المترو ، فى الميادين شاهقة الاضواء ، فى الطرقات الهادئة والحوارى يبحث عن السمات ، ربمـا كان رحيلهم حلما ثقيـلا يتبدد إذا صادف محروس ، أو حسين ، أو كمال ، يلقى أيا منهم أمامه ، يصافحه يتساءل أى صدفة سعيدة ، يدعوه إلى كوب شاى فى مقهى دافئة ، يجىء

ماسح أحذية يخبط الصندوق الخشبي ، يضحك بعض رواد المقهى ، يصيح الجرسون ، ويرسل الراديو أغنيات قديمة ، قال عادل تتدفق الوجوه لكن عبثا ، عند الطابق الثانى خرجت المرأة تلعن العيال الذين لا يكفون عن اللعب فى المصعد ، لو استمر الأمر سيموت السكان من طلوع السلم . .

دفقة من رنين التليفون ، تتبعها دفقات .

مجدى يرى قاعات مزدحمة يغرقها ضوء ومرايا ، أيدى وأكواب مضلعة الحواف حفيف ثياب ، قهقهات ، روائح عطور ، يلمس المطرب الشاب أوتار حارة الرغبة كلما تقدم الليل ينأى رحيله مستمر لا يهدأ ، عادل يخفض صوته ، يطرق حافة المنضدة الصغيرة بأصابعه .

ــ أتدرى يا عادل بك ؟؟

ابتسامة .

ــ عادل من فضلك . . أنت الآن شريك خطر ومواجهة . . يعقد مجدى أصابعه فوق رأسه ، كلمة خطر .

ــ أحيانا ألقى نفسى فى بادق ، حولى صخب ، أصحاب ، وشرب . . هل تشرب . .

ــ أحيانا ، اذا سمحت الفرصة . .

ـ بين الاصحاب ألقى نفسى وحيدا ، جزيرة متوحدة معزولة ، لو بادلتهم الحديث تزداد عزلتى ، لكن الصمت هنا وحشى . . . يقبح . .

ـ أنت تشخص الآن ما أشعر به أحيانا فى صالة سماع الموسيقى . .

يلحظ مجدى الآن أصبع عادل ، يتحرك على نغمة الصوت ، يشير إلى أعلى . . إلى أسفل ، فى حركة دائرية . . لكن ، أى موسيقى ؟؟

أهوى البشارف والموشحات القديمة .

ـ عندما تنزل اجازتك ، أرجو أن تزورنى فى الجريدة . . . . دائما تأتينى دعوات مجانية وغالبا لا أذهب . .

لكن هل تهوى الموسيقى القديمة فقط ؟؟

قال عادل ، أحيانا . . يسمع السيمفونيات فى الراديو ، لكنه رأى عروض باليه عديدة بمفرده يمضى إلى دار مبنى الاوبرا القديم ، كرر مجدى ـ لا بد من مرور عادل عليه ، قال عادل ان الموسيقى الشرقية تثير فى نفسه غبار الزمن ، وجد صامت ، قال عادل انه رأى البيت خاويا ، مع أنه قضى اجازاته كلها وحيدا طوال الاعوام الثلاثة الاخيرة يعود يفتح النوافذ ، النهار كالحليب ، يرقب البيوت ليلا ، ينظف الاطباق ، يشم رائحة المطبخ يفتح أوعية السكر ، لم يزحف النمل اليها ، يقبض حبات الارز ، ينقل أطباقا صغيرة إلى مائدة تتوسط الصالة مغطاة بفرش أبيض ،

تتناثر فوقه ورود حمراء كبيرة ، فى يوم منقض عادت به أمه من السوق ، سألته ، ما رأيك : قال ، كل ما تشترينه يعجبنى ، قبض حافة المائدة ، كيف لا يذكرها كثيرا ، رأى الصالة فسيحة بلا حد ، يلمس آثار أنفاسها ، حجرتها مغلقة ، قام ، رطوبة بلاط الصالة تنفذ إلى باطن قدميه ، يعلو بوق عربة ، يصيح طفل صياحا متمملا ، ينقطع فجأة يبدو حلما ، وهما ، على مهل يفتح الباب ، يراها أول النهار تقلب السكر ، ترشف قهوة ، تنفض الغبار عن جاكتته ، يراها فى اغفاءة العصر ترحل رحيلا قصيرا إلى أقصى الصعيد ، تستدعى أيامها الاولى ، تحوم حول مدينة الاسكندرية ترى البحر بعينى الدهشة الصامتة ، والده قضى زمنا بها ، تركب قطارات سريعة ، تطوى حقولا ، تلقى بالدوم فى الصومعات ، تنتظر عودته ، القماش الابيض الخفيف يحيط وجهها ، دائما تستند بظهرها إلى الجدار ، يلتصق الطلاء بجلبابها ، سنين العمر كله تجسدت أثرا لا يمحى ، ابقاه العرق والظل ، قال عادل انه رأى الخشوع القاسى ، يدب فيه دم ، ترقبه الآن ، تصيح ، تزعق فلا يسمعها ، رجاله الثلاثة ، يحيطونه بحنو ، لا يعرفون إلا الابتسام ، راحوا معا وكأنهم تواعدوا . .

(انفجار . .)

ـ تقريبا فى القنطرة . .

ـ طيران ؟؟

ـ بالضبط . .

ـ لكن الانفجار ثقيل . .

ألف رطل . .

ألف رطل ؟؟

ـ يستخدمها الطيران كثيرا . .

ـ يتوقف تأثيرها على طبيعة المكان وما يحتويه . .

دوامة فى اليابسة ، تنثر ترابا وحجارة ، فوق وجهه زحام تغييرات صامتة ، ميراث خفى يلقى بجسد الانسان ، منبطحا قبل الانفجار ، مجدى لا يدرى إلى أى نقطة وصل الليل ، يرى مذياعا صغيرا ، زملاء الرحلة يصغون إلى خبر موجز ، (وأغارت طائرات العدو على مواقعنا فى . . لمدة ثلاث ساعات) . . دهور تمضى وأحقاب زمنية تأتى ، تمضى هنا فى لحظة ، يولد العالم فى اليوم مرات ، يبدو وهما صلبا ، ترسم الطائرات خطوطا من الضجة ، عندما تدق الساعة عشر دقات غدا . صباحا ، فى الراديوهات ، فى الميادين سيقوم ، يعانق عادل . .

(انفجار . .)

ـ مدفعيتنا . . الشغل الحقيقى يبدأ بعد الثانية عشرة . .

يصغى مجدى إلى خروج الدانات ، إلى لفظ الشغل ، ينفذ إلى ايقاعه ، الشغل هنا يعنى القتال ، فى كل مكان يتغير ، يتبدل ، الجهد الانسانى المتنوع .

(انفجار . .)

بدا حادا قويا ، ترددات الصوت تقلب أمعاءه ، حاول أن يتذكر ، من اقترح فكرة الرحلة فى البداية ، من بالضبط ، يهز عادل رأسه ، يطلق آهة ، قال ان محروس فى تمدده بدا هادئا ، واثقاً ، كأنه يضع الخطط لمستقبل آت ، كان رأسه على وشك ايماءة قصيرة ، لا اصابة فى جسده ، لكن ، خلف الأذن الأيسر ، بصمة حمراء قانية طريق سلكته الشظية بدقه ، رسم لها من زمن سحيق ، سافرت سنين عمره كلها لتصل إلى هذا الموضع بالذات ، دفقات دم بطيئة .

ـ عندما تصطدم قدمى العارية بحافة مدببة ، يسرى عرق الألم وعرا فى جسدى ، انهال بقبضتى على الصدمة ، اقتل الألم بالألم .

(انفجار . .)

يبدو الليل غامضا مثقلا ، مجدى يرى عادل جالسا إلى جواره فى مقهى هادىء ، صمت عذب ، يتابعان مرور الفتيات ، يتراجع مجدى إلى

الوراء ، يبدى عادل اقتراحا ، يذكران الصبى المفتقد ، الأمل المرتجى ، يرسمان مشروعا لا يقبل التأجيل « ألا تفكر فى الزواج » .

وينأى ، ضجة السهرات ، مروق الأضواء عند المنحنيات ، عبير العطور ، قال عادل انه لن يتزوج إلا بعد الحرب ، انه يعرف احدى الفتيات ، ضحك ، قال انه يعرف هدفه تماما ، صمت ، يسند مجدى ذقنه إلى راحتى يديه ، قال عادل ، اسمها هدى ، اذ تلقاه يرى فى عينيها انتظارا لما سيقول ، رقيقة كسنبلة ، كدفء البيوت ، تنتظر ألفاظ الحب ، ويخفق قلبه ، يود لو يعبر عن نفسه ، كما هو ، كثيرا ما تقع الالفاظ أسيرة عند طرف لسانه ، تطرق خجله ، هنا فى ضيق الملجأ يذكر ايماءة رأسها الخجلى ، عندما دخل عليه سالم ، أحد جنوده الصعايدة ، قال إن الضرب شعل حرائق عند العدو لم تهدأ منذ الصباح ، لم يخفها ضوء النهار ، وإذا استمرت حتى الليل ، سيراها الجميع لهبا برتقاليا ، قام عادل ، قال انه احتضن سالم قبله .

(انفجار . .)

يقوم عادل ، مجدى يرى يوما بعيدا من طفولته ، يقف فوق سطح البيت القديم ، السماء صافية جدا ، وهناك فى المنتصف تماما ، خطوط رمادية ملتوية بطيئة ، صاح ثعابين تطير ، رفع أبوه عينيه ، ظلالهما بيده ، هز رأسه ، هذه طيور ولكنها تبدو كثعابين ، قال مجدى إذن هى ثعابين .

ـ عادل . . ما الذى دفعك إلى احتضان سالم ؟؟

(انفجار ثقيل بعيد)

ـ لا قاعدة تحكم هذا . .

قال ، يتوقف القتال ، تطوف عينا الانسان بالمكان ، تنطبع الاشياء على الحدقتين كأنها المرة الاولى التى تدرك أن هذا حجر ، هذا حديد ، تلك أكياس رمل ، تسمع نداءات ، أحاديث هنا ، لا بهجة تعادل سماع أصوات البشر بعد توقف قتال ، وعندما يلتهب الفراغ ، تضبط المسافات ، تحدد القطاعات ، ينبثق زعيق أصوات غامضة من حناجر الرجال ، أول مرة تعجب ، ما معناها ، ما مقصدها ، حروف الكلمات معجونة ، متشابكة ، معناها لا يكتمل إلا بحركات الايدى ، انفجار الدانات ، الطفولة ، الميلاد ، الامل فى السفر ، رغبة عن الوعى (انفجار) دنيا بأكملها ، شوارع طرقات ضيقة تلمع تحت المطر ، حارس يتثاءب ، بضاعة فى فترينة مظلمة ، بيوت تضمها رمادية الشتاء زجاج مغلق ، شمس وبحر (انفجار) ، إلى جوار أمه ، يمد نظره قطار يندفع بمحاذاة حقول خضراء ، يشير بأصبعه ، يبدو انسان ضئيل كدمعة ، يد مجهول ألقت بهوسط الخضرة (انفجار) كيف لم يصل إلى دلالة ما رآه لحظة حدوثه ؟؟

(انفجار ، انفجار ، انفجار بعيد) .

يتكرر صفاء النهار ، القمر لم يختف والشمس تتقدم فى السماء ، فى خط مائل تنزلق الطائرة ، كأنها أقلعت منه ، من القمر . . (انفجار . .) لو أنه لم ير الصبى الصغير ، هل كان سيعانق أثر أمه الغالى ، يرثى رجاله ، يمشى فى الطرقات تأكله الرغبة فى رؤ ية هدى ، (انفجار) ، الآن تبدو الدنيا هينة ، رأى أياما لم يروها هم ، لم يعرفوا طعمها ، عاشها ، بدونهم ، (انفجار) ركوب قطارات ، رأى صاحبته ، أطعمة متنوعة ، قال فى ظلال الضوء الناعم انه لا يفهم فى الصيدلة ابتسمت هدى ، (دوى شديد متلاحق) أشقر ، يطالعها دائما فى الاتوبيس ، وهنا . . (انفجار . . انفجار) وميض يسبق الطلقة ، اهتزاز الفليرز وتعلقه فى الهواء ، خطو الرجال فوق الضفة الاخرى ، بعد رحيلهم . . (انفجار) لن يخاف ، لن يعبأ ، هل أصابت الدانات أهدافها ، تجىء تقارير الاستطلاع مبشرة ، يسمو ، أنجز عملا (انفجار . . انفجارات متلاحقة مضمومة متوالية) رجاله ، منهم شكرى ، يدخل عليه يوميا ، فى وقت بعينه ، يسأل كم الساعة الآن ، ينظر اليه ، يقول بنفس اللهجة ، السادسة والنصف ، ينظر إلى معصمه ، يدير المفتاح الصغير ويسأل . .

شكاوى الجندى الفصيح

نشرت فى مجلة الهلال أغسطس ١٩٧١

.. وبتاريخ ١٩٦٧/٧/٧ عينت بالشركة موظفا فنيا بورش الآلات الفنية ، وقمت بعملى خير قيام ، حتى استدعانى الوطن اعتبارا من ١/١/ ١٩٦٨ ، فلبيت نداء الواجب ، ومنذ هذا التاريخ كنت أصرف نصف مرتبى كما يقضى القرار الجمهورى بهذا ، وفى ١٩٦٩/٦/٣٠ أنهيت المدة القانونية لخدمتى ، سنة ونصف سنة ، وأصبح يحق صرف مرتبى كاملا ، وعندما حضرت اليوم إلى الشركة فوجئت بالصراف يخبرنى ، اسمك ليس فى كشوف المرتبات ، سألت مدير المستخدمين ، وتبين أن سيادتكم أصدرتم قرارا بفصلى ، ولم أعرف السبب ، مع اننى قائم بعملى خير قيام ،

ويشهد رؤسائى بهذا ، ولم يوضح أحد ، لماذا فصلت ؟؟ وظننت أن المقصود بالقرار شخص آخر يشابه اسمه اسمى ، لكننى عندما عدت إلى مدير المستخدمين ، أكد الخبر ، اليوم ينتهى تصريح اجازتى ، وأعرف ان وقتكم لا يتسع لسماعى اليوم ، لهذا أكتب الطلب المرفوع اليكم على عجل ، راجيا النظر اليه بعين العطف .

وتفضلوا بقبول فائق التحية والاحترام ،

مقاتل : بدير الطحاوى .

١٩٦٩/٧/٧

* * *

. . وحدث أن أومأ سامى سكرتير المدير العام لشركة الألبان برأسه ، قال لفظا واحدا مختصرا :

ـــ اطمئن . .

وحاول المقاتل بدير اضفاء ارتياح على ابتسامة أبداها ، تمنى لو لفظ السكرتير الشاب ألفاظاً أخرى ، لكنه اشتغل بالنظر الى ملفات أنيقة كتب فوقها بخط منسق « للعرض » وعندما دخلت فتاة جميلة يصحبها عطر

شفاف الرائحة ، أيقن بضرورة انصرافه ، وإلا بدا ثقيل الدم ، قال كلمتين :

ـ أرجوك . . لا تنس .

سيسر سامى السكرتير الشاب عندما يرجوه أحد الناس أمام فتاة جميلة

* * *

بريد حربى

السيد/مدير الشركة العامة للالبان . .

بعد التحية :

يا سيدى المدير ، أرجو وصول خطابى وأنتم فى أتم صحة وهناء ، قبل استرسالى أعرف لو أن أحد الموظفين قرأ ما كتبت لقال ، ليس هكذا تبدأ الخطابات الرسمية ، لكننى انتظرت رد الشركة على الطلب المقدم اليكم فى ١٩٦٩/٧/٧ ، لم أنجح فى مقابلتكم ، قلت فلأ فتح قلبى لكم ، أحكى عن حياتى ، أقص ظروفى ، لا أخفى أمرا من أمورى ، لهذا التمس العذر لو خرجت عن الصيغ الرسمية ، وألتمس العذر مرة ثانية لو تغير الحبر من أزرق إلى أحمر ، أعرف أنه عيب كبير ، لم أعلم هذا عند التحاقى بالعمل مباشرة ، وإنما حدث بعد شهر من عملى بالشركة ، أن كتبت ملخصا

لخطاب مصدر اليكم ، لم أكتب الخطاب نفسه بالحبر الأحمر ، إنما رقمه وما يحويه فى السركى الخاص بالبوستة ، استدعيت الى مكتب المهندس الحسينى ، خشيت الأمر عندما نظرت إلى وجهه ، بدا ساخطا ، تساءلت خائفا عما ارتكبت ؟؟ خطر لى ، ربما كتب تقريرا يشير فيه إلى عدم صلاحيتى للعمل ، عندئذ أفصل ، خاصة وأننى وقتها لم أقض مدة الاختبار التى اعتبر بعدها مثبتا ، والمدة كما تعرف ثلاثة أشهر ، ثلاثة أشهر لا يحق بعدها فصل العامل أو الموظف ، رآنى المهندس الحسينى وتساءل بدهشة عما تعلمناه بالمدارس ؟؟ اندفق الدم مسرعا فى شرايينى ، انعقدت الحروف على لسانى ، امتدت يده بالسركى مفتوحا ، رأيت ساعده غليظا ، كثيف الشعر ، علا صوته موضحا أن سركى المدير لا يمكن اطلاقاً الكتابة فيه بخط أحمر ، أى مكاتبة رسمية يستعمل فيها القلم الأحمر خطأ تام ، المسموح له باستعمال الحبر الأحمر ، واحد لا غير ، سعادة المدير نفسه . وأخرج عددا من الخطابات رسمية ، مكتوبة بخط مرتب ، تحمل تأشيرات عديدة بالحبر الأزرق ، فيما عدا خطوطا قليلة كتبت بسرعة ، فى أسفل الصفحة أو أعلاها ، باللون الأحمر ، عرفت عرفت خطك يا سعادة المدير ، فى لحظات الراحة بعد الغداء أجلس إلى زملائى الموظفين ، نحاول تقليد توقيعات مدير الإدارة الفنية ، والسيد مدير المستخدمين ومدير إدارة البحوث الدقيقة ، وفعلا نتقنها ، لكن امضاءك انت ، انت

بالذات ، محير غريب ، خطوط بسيطة جدا ، لا تعقيد فيها ، مع هـذا نعجز تماما عن كتابة مثلها ، وعنـدما أرى قـرار فصلى ، لا أصـدق أن امضاءك استقر على ورقة تحمـل قراراً يحـرمنى من أكل عيشى ، امتنـاع مرتبى ، وبقائى بلا عمل تترتب عليه أمور عديدة لن أخفى واحدا منها ، وقبل استطرادى أرجو توضيح ما ذكرته ، الخاص باستعمالى لونين مختلفين فى خطاباتى اليك ، أنا يا سعادة المدير فى بور توفيق ، وبور توفيق ليست مدينة كبقية المدن التى عرفتها ، هنا يفصلنا عن العدو مجرى مائى ضيق ، لا تتبينه الا عند الوقوف قرب حافته مباشرة ، لو مشيت على بعد قليل من الشاطىء ، سترى بعض المبانى عند العدو ، وكأنها فوق الأرض ذاتها ، لا تفصلنا عنها القناة ، هنا لا تجد مبنى من طابقين ، لا نوافذ خشبية ، ألواح زجاجية ، لا يقف جدار لا يمتد سقف ، لم يعد يقوم سلم ، يقول ضابطنا ، كانت بور توفيق من أحلى المدن ، من يـدرى . . ربما جئتهـا يا صاحب السعادة وقت المصيف ، الآن الحضور اليها مستحيل ، دائما أرى بور توفيق فتاة جميلة ، يتدفق وجههـا حياة ، تجـرى فوق شـاطىء رملى ، تلهو ، تتجه دائما إلى البحر ، تقف فوق قارب يقسم الماء قسمين ، يحيل الأزرق إلى زبد أبيض ، فجأة يطلع قزم ، كبير الأنف والرأس يقذفها بماء النار المركز ، ينصهر اللحم ويهطل بنيا فى لون الشيكولاته ، رأيت مدنا بعيدة رحل اليها سكان بور توفيق ، عندما رحلوا ذهبوا على

عجل لم يجمعوا أشياء العمر الصغرى ، تناثرت علب الطعام المحفوظة ، حطام أطباق الصينى ، بقايا أسماء حفرت ، عثرت على موقد بريموس صالح ، نستعمله الآن ، لا أمتلكه انما يخدم السرية كلها ، وجدت صورة ، الاهداء عليها « **الى عزيزى فوزى .. لعلك تذكرنى ، فالذكرى ناقوس يدق فى عالم النسيان .. حمدى** » .

لم أعرف فوزى ، لم أعرف حمدى الذى أطل علينا من الصورة مسندا ذقنه الى يده ، تساءلت كيف هان على فوزى أن يلقى صورة صاحبه حمدى ، سألت ، أيعرف أحدكم صاحبها ؟؟ راح كل منهم يتذكر ، حاولنا من ملامحه ادراك ، أهو متزوج أو أعزب ؟؟ عامل أو موظف ؟؟ وحولنا يجىء الليل البطىء من البحر ، من خليج السويس يرافقه صمت الأيام الأخيرة من عمر الدنيا ، الصمت عمقه بالسنين ، الصمت هنا كالمرأة الحامل فى نهاية شهرها التاسع ، يفاجئها الطلق ، فى طياته انفجارات موت ما قبل الأوان ، دانة المدفع لا تنذر باقترابها كانهيار بيت قديم ، تجىء كموت السكتة ، أسبق من برق ، أحد من صرخة فزع فى خلاء مزروع بالنخيل ، الشظايا تنتشر بسرعة ، بعضها فى حجم رأس عود الكبريت ، الآخر كماجور العجين ، أحد أصحابى يا سعادة المدير استشهد بجوارى ، والاستشهاد وصف مخفف للموت ، للفراق الأبدى ، أرجو ألا أزعجك ، بحديثى عنه ، أعرف أننى أثقل عليك ، لكن

تحملنى ، اسمه سعيد يا سعادة المدير ، كمسارى فى هيئة السكة الحديد ، أمهر طباخ رأيته ، فى نهار بعيد وقف بجوارى فى نقطة الملاحظة ، نسيت اخباركم اننى مقاتل فى وحدات الاستطلاع أرقب العدو ، المهم ان سعيد بقى على حاله عند الانفجار ، نظرت اليه ، غبار ودخان وذهاب الشباب ، رائحة اجهلها تخفى نفسها ، ناديته لم يجب ، زحفت اليه ، أمسكت ذراعه ، لم ينطق حرفا ، جسمه سليم تماما كأنه يختطف اغفاءة من عناء الدنيا ، ينام متمددا فى يوم أثقلته الحرارة ودخان مجهول المنبع ، أخيرا لمحت الدم ، ثقب صغير فى جبينه يطل على الأبدية ، يسيل منه دم شديد الحمرة ، لا يخرج فى خيط رفيع ، انما على فترات ، ضنين كمصباح عربة ريفية ، متقطع كضوء فنار يختفى ، يعود ، عين حمراء تكشف نفسها لحظات فى سواد غادر تحذر الصيادين ، تكشف أماكن شعاب المرجان الخفية ، تشى بالقاع القريب ، بمرارة العمر القصير ، مات سعيد يا سيدى ، قبيل نومى أراه ، فى اغفاءة الظهير ألمحه ، يحوم قربنا ، سيظهر فجأة ، أرى بعقلى ثقب جبهة الرأس ، تتسرب السنوات منه فأبكى بقلبى ، لو بادلته مكان وقوفى لنفذت الشظية فى رأسى أنا ، الموت هنا صدفة ، يبث الكمائن حول أعمارنا ، اذ يطلع النهار ، نرى الشمس وجها جميلا حنونا ، رغيفا ساخنا لا يمس ، تقول أعماقنا ، مازلنا نعيش ، رأينا يوما جديدا ، ترى ما الذى سيجرى اليوم ، هل سنرى النهار

الجديد ؟؟ لو ذهب واحد منا ، نحاول تذكر ، آخر مرة رأيناه آخر لفظ ، ما تمناه ، نراه روحا طاهرة جناحاها مغموسان فى دم حار لا يجف الا يوم القيامة ، الآن ، كلما صحوت على صوت انفجار ، أو غارة دب جرذ فوق وجهى ، اذا رأيت حلما ثقيلا يزحف الى كذبابة كريهة المنظر ، أتذكر أمورا عديدة ، بالذات منذ عودتى من اجازتى الأخيرة ، فى الليل المهجور من القمر ، أقف فى نقطة الملاحظة ، أرقب انفجار اللهب ، أرصد الصوت ، أعد همس البشر ، هدير الآلة ، الصمت الغريب ، يتردد فيه صوت قطعة صفيح يهزها الهواء ، تصطدم بجسم حديدى فى بقايا ورشة ، منذ لحظات رأيت وهج نيران بعيدا فى سيناء ، شعلة برتقالية اللون فى حجم قبضة اليد ، بين الحين والحين تنتفض الى أعلى ، تعود الى الثبات من جديد ، قدرت المسافة ، أبلغت مركز المراقبة ، قبضة اليد النارية هذه كتلة لهب تعصف بمخزن ذخيرة ، سمعت جنديا يصيح « حريق عند العدو » تساءل عن السبب « ربما حادث . . ربما عملية لرجال منظمة سيناء ». أصغيت الى مياه القناة ، السمك يطل علينا ، لا يصيده أحد فأصبح سمينا ، فى النهار يعوم متبجحا ، متحديا ، لو غفوت قليلا ، سيمرق قزم شائه ، كلما تخيلت العدو أراه قزما كبير الرأس ، يمشى ، يمشى ، حتى . .

* * *

عنـدئذ تـوقف سامى ، السكـرتير الشـاب ، نـظر إلى الـطريق ، العربات ، المارة قائلا البحر يبلل هواء اسكندرية ، لن يمضى وقت طويل الا وتزدحم المدينة ، يبدى ضيقه من الصيف يقول . . من يعرف مدينتنا لا يأتى اليها فى الصيف ، أحب الشهور ابريل ، مايو ، سبتمبر ، والشتاء كله ، عاود النظر الى الاوراق الصغيرة ، بدير الطحاوى فيها يعلم موظف صغير ، لا يحق له مخاطبة سعـادة المديـر هكذا ، نـظر الى الفتاة ، درج مكتبهـا عريض غـير مغلق ، تقلب داخله مجلة ، راديو أغلقتـه الآن ، البرنامج الموسيقى أنهى ارساله منذ ربع سـاعة تقـريبا ، بعـد التحاقهـا بالعمل حاول كثيرا ايجاد موضـوعات للحـديث ، لا تدفـع الحوار من جانبها ، اجاباتها محدودة ، تنتهى فجأة ، عادة تصـاحبها هـزة رأس ، عندما جاءت ضاق بها ، لم يعد الشخص الوحيد الذى يحق له الدخول على سيادته ، أو النظر من الفتحة المستديرة التى تتوسط الباب المكسو بالجوخ الأخضر لينظر ، أمشغـول سيادتـه ؟؟ أيكتب ؟ هل خـرج الضيف من الباب الآخر ؟؟ هل أنهى سيادتـه حديثـه التليفونى ، يعلم أنها جـاءت بتوصية من رئيس مجلس ادارة المؤسسة العامـة للشحن والتفريـغ ، انه صديق قديم لسيادته ، بل يقال ، ويبـدو القول صحيحـا ، انهما زملاء دراسة ، سهير تمت بصلة قرابة بعيدة الى رئيس المؤسسة ، اذن . . . لا بد من توثيق العلاقة بها ، قطعا زارت بيت سيادته مع قريبها ، من يدرى أى

كلام تنقله اليه فى المكتب عندما تدخل اليه ، تخلو به فترة ، المزعج ان سيادته لم يسأله عن أحوالها ، لم يستقص أخبارها كما يفعل بالنسبة لبقية الموظفين والعمال ، ماذا يعنى هذا ؟؟ الثقة التامة بها ، ربما أدى وجودها الى التقليل من أهميته ، ينقل يوما الى مكاتب الموظفين ، لا بد من النفاذ اليها ، وكما يثق ، لا توجد امرأة تستعصى على رجل ، لكل منهن طريق خاص يتحتم عبوره ، الآن لا يهمل أى تقصير فى مظهره ، الشعيرات الزائدة بوجهه ينفيها تماما ، لكنها لا تشجع على تبادل أى حديث . .

ـ يبدو ان العالم اختل يا مدموازيل سهير . .

رفعت رأسها ، تململ عطر . .

ـ واحد اختل عقله وتصور البك المدير صاحبه . وراح يكتب فى خطابه كل ما يرغبه . .

* * *

. . يهاجم أبى ، تكتم أمى شهقة ، يستدير الى أختى ، هنا تقشعر كتفاى ، يسرى رمل ساخن كالشظايا فى سلسلة ظهرى ، أرى القزم يوثق يدى أختى ، صفية نسيت أخبرك عنها ، صفية عندها الآن أربعة عشر عاما ، ربما تتزوج فى العام القادم ، البنات يتزوجن مبكرا فى الريف ، بالطبع سيحتاج أبى الى نقود أكثر من دخله هذا العام بالذات ليشترى

جهازا لصفية أختى التى تنتظر رجوعى فى الاجازات ، تنتظر ما أحضره معى ، لا أدخل عليها بيدى فارغة ، مرة آخذ شال قطن أحمر ، زجاجة عطر ، كيلو حلوى من طنطا أفرح جدا عندما أرى التماع عينيها ، أسمع دعاءها، تحاول تقبيل يدى ، يتغلبنى خجل فأمنعها برقة . .

وأتذكر فى نقطة الاستطلاع ، أقول فى عقلى انك لا بد صححت الأوضاع ، انصفتنى ، أعدت اسمى الى كشوف المرتبات ، الغيت قرار فصلى ، صحيح أن رد الشركة تأخر ، لكننى أثق أن امضاءك البسيط ، توقيعك الأنيق ، استقر أخيرا فوق قرار يرجعنى . .

* * *

لم يحدث أن أبدت اهتمام كهذا منذ وصولها ، قام ، توسط الحجرة . . .

ـ ما الذى يقوله سيادته عندما يرى خطابا موجها اليه بهذه اللهجة . . .

ابتسمت ، أبدى حماسا . . سألت . .

هل أرسل خطابات أخرى . .

ـ أول خطاب . .

« . . سعادة المدير . .

وصلني خطاب من أبي ، وقلت من قبل انني لن أخفي عنك أمرا ، وكما قيل لي فذاكرتكم لا تنسى أتفه الأمور ، وكلنا نذكر يوم نزولكم الى الورش ، تطمئنون على سير العمل وتصادف ان عاملا ترك مكانه على ماكينة السحب ، خرج يقضي حاجته ، لم يشأ أحد من زملائه أن يؤذيه ، انتظر حتى مررتم عليه ، دار حول الورشة ليقف أمام ماكينة السحب حتى لا ترى المكان خاليا ، وتوقفتم أمام العامل ، نظرتم اليه مرة واحدة ، سألتم ، ألم أرك منذ لحظات ؟؟ اصفر وجه الرجل ، اعترف وخصم من مرتبه أسبوع ، أما زميله فثلاثة أيام ، وقيل رأفت بهما ، وعندما مررت بي ، أول مرة أراك عن قرب ، لا يفصلني عنك غير متر واحد ، انتظرت أي ملاحظة ، لكنك لم تتوقف كثيرا عند الماكينات التي أشرف عليها ، بعدها حصلت على مكافأة نصف شهر ، وهذا دليل على قيامي بعملي خير قيام ، أعرف قوة ذاكرتكم لا تنسى اسما ، أو ملامح وجه ، لا تنسى فصلي ، في أوقات عديدة هنا ، وقوفي بنقطة الاستطلاع ، انتقالي عبر الخنادق ، نزولي في حفرة عند التهاب الهواء ، أقول ربما ينهي سعادة المدير موضوعي الآن ، أقول هذا ولم يصلني أي رد ، بالأمس قرأت خطاب أبي انقبض قلبي ، اسودت الدنيا في وجهي ، رأيت كتفيه تنوءان بحمل الهم ، يمشي ، فوق الجسر تعبر عربة أجرة ، أنا لست من ركابها ،

لا أحمل مرتبي ، أربعة عشر جنيها وخمسة وأربعين قرشاً ، ثمانية لأبى ، جنيها لأمى ، خمسة أحتجزها ، والخمسة والأربعين أشترى بها حلوى ، أبى لا ينفق الجنيهات كلها ، يدخر مبلغا لا أعرف مقداره ، أخطار الزمان كثيرة ياسعادة المدير ، رأيت أبى يميل إلى جذع شجرة قديم ، بجواره محمد أفندى مدرس الابتدائى ، يملى عليه ما أقرؤه أنا فيما بعد هنا ، أخبرنى أبى أنه ينوى ، اذا سهل الله الأمور ، أن يبنى الحجرة العلوية المتهدمة فى البيت ، أخبرنى بدعائه لى فى مسجد القرية ، أن يضع الله فى طريقى أولاد الحلال ، أن يفك عقد أمورى ، أتظن يا سعادة المدير أننى أخبرت أبى بقرار فصلى ؟؟ صدقنى ، خجلت أن أنقله إليه ، لا تتصور ضيقى وحرجى عند دخولى البيت ، لا أدرى ما أقوله ، ما ألفظه ، تمنيت لو اقترضت مبلغا يوازى مرتبى ، أعطيتهم ما تعودت كل شهر ، ولكن من يقرضنى يا سلام يا سعادة المدير ، عندما ترفع أمى يديها ، تدعو لى بعد أن أعطيها الجنيه ، لا شىء يدفع الدمع إلى عينى فى بور توفيق ، هنا عند الساتر الرملى ، عند الحد الأمامى ، الا هى .. أمى .. أنا لم أحدثك عنها يا ... »

هنا تراجع ضاحكا ، يده تمسك بالورقة ، أصبع من اليد الأخرى تشير إلى الخطاب اشارات متتابعة ، كأنه يطعنها طعنا خفيا ..

ـ وصلنا إلى سيرة الأم .. ياسلام سلم ..

سهير لا يخفى عليها ما فى ضحكته من افتعال ، صحيح الأمر مسل ، لكن . لماذا الضحك بهذه الصورة ؟؟ يحاول اثارة اهتمامها ، أن يبدو خفيف الدم ، يمكنها اسكاته بكلمة تخفف من سروره المفتعل ، لكن لا داعى ، ربما دخل إلى سيادته ، وباعتباره أقدم منها ، أكثر فهما لظروف العمل ، ربما يحاول نقل تقرير عن كفاءتها ، ثم التشكيك فيها ، بالتأكيد لم يخبر سيادته بالمجلات ، بالراديو ، والأحاديث الطويلة فى التليفون ، هو نفسه بجواره راديو كبير يفتحه أحيانا بعد استئذانها لسماع أغنية ، أو برنامج ما من الاذاعة المحلية ، فى مرة سابقة تناقشت معه ، هى تميل إلى الأغانى الأجنبية ، تجيد الفرنسية تماما ، لكنها تسمع الأغانى الانجليزية والهندية واليونانية ، سألها ، هل تفهم المعانى ؟؟ قالت ، ما يهمني لحن يهزنى ، كلمات الأغانى تتشابه أما الألحان فمتنوعة ، بعد أن كاد يتوقف عن الضحك ، خبطت سطح المكتب بأصابعها النحيلة الطويلة .

ــ انما صدقنى يا أستاذ سامى . .

ــ مدموازيل سهير . . أنا وانتى نقضى معا وقتا أطول مما نقضيه مع أهلنا . . سهير . . أطالب وأستميت فى مطلبى برفع الرسميات . .

أسبلت جفنيها ، الكلمات ترافقها ابتسامة

ــ ممكن . . ها . . هات صاحبنا . . قلت لى اسمه بلبل .

ـ بدير . . آه بالضبط بدير .

« . . أربعة أمتار قماش ، كستور ، بيكة ، لحظتها تحار عيناها ، تنسال منهما رقة تمس عصب الوريد ، تبسط الكفين ، تطلب الستر ، أمى تخرج إلى السوق ، تبيع القمح والفول ، تجادل الرجال تقسم الايمان ، أقول ، لو جاءت إلى بور توفيق لن ترعشها شظية ساخنة ، دانات الألف رطل ، زحف النابالم اللزج البطىء لن يرتج قلبها ، لن تصرخ ، حياتها يا سعادة المدير صدى انفجار مرهق طويل لم يهدأ بعد ، فى رأسها سؤال ، يدركها اينما ذهبت يباغتها كالكمين المتقن ، ما الذى تعده للغد ؟ أى طعام يأكله الأولاد ؟؟ أى قسط لابد من تسديده ؟ هنا أحببت أمى أكثر ، أرجع البيت ، أعطيها قطعة الهريسة ، تقضم طرفها تبتعد عنى ، أعرف ما تفعله ، تقسمها ، تمد نصفها إلى أختى مع أن نصيبها معى ، لقمة الخبز حنظل فى فمها ، علقم اذا لم نشاركها فيها ، هذه المرة يا سيدى ، لم أجلس معها بعد العشاء ، لم أعطها الجنيه ، لم تطلب منى أبدا ، حتى الجنيه لا تنفقه على نفسها ، تسد به بعض حاجات البيت ، لو شرفتنى يا سعادة المدير فى بيتى ، وهذا مستحيل ، فستجلس على كرسى خشبى يواجهه آخر ، اشترتهما أمى ، أصحابى يجيئون ، عيب أن يجلسوا فوق الحصير ، أما الكليم الصوف فباعته اياها امرأة دلالة بالتقسيط ، ربما امتدت الأقساط عاما ، لكن ما يجىء يستر البيت ، لو سألتنى عن أمنية حياتى ، لزعقت

بأعلى صوتى ، هنا فى بور توفيق ، أن أضمن أياما قليلة لأبى ، لأمى ، يخلو قلباهما فيها من الأسى ، بعد أن ضفرته الأحمال ، أسدد ديونهما ، أسترد مصاغ أمى الذى جاءها عبر أجيال عديدة وباعته للصياغ فى البندر ، والخلخال الفضى ، لكن كيف أفعل ، وقد فصلتنى يا سعادة المدير . . أخشى الا يصدقنى أبى ، يظن أن واحدة من أهل البندر لفت على وأغوتنى ، أبى لا يمانع فى زواجى لكن المفروض أن أخبره ، لماذا تجرى الأمور فى الخفاء ؟

* * *

ــ سأشرب شايا يا سهير . . وأنت ؟؟

ــ مرسى خالص . .

ــ الرجل ينتظر . شاى أو قهوة ؟؟

ــ والله شربت من . . .

ــ من فضلك اسمحى لى . .

ــ ياه طيب . . كوكاكولا اذا سمحت . .

* * *

.. رأيت البصـاق النارى ، الـدخان يتجمـد فى الهـواء كحجـارة اسمنتية ، تنفجر دانـاتنا حـول عربـاتهم ، ينبثق منها دخـان ، اطلالـة شعيرات القطن المفاجئة من لوزة خضراء مغلقة ، دانة مباشرة فى السيارة النيران البرتقالية فى البـداية ، اختـلاطها البـطىء بدخـان أسود سـائل كالبترول ، جاءت ريح من الخليج قومت مساره لملمته فى اتجاه واحد ، وهنا .. جاء الطيران ، هدير الأعالى المخيف ، دائما الطيران يـا سعادة المدير تبـدأ مدفعيتنـا فيردون بـالطيـران ، تحركت الخـوذات فى الحفر ، الصوت يحوم ، يشوه وجه الصباح الهادىء ،شفرات حادة تقطع السماء الزجاجية ، طلقات الفيكرز توخز النهار ، رفعت رأسى ، رأيتها رأيتها ، نقطة بيضاء تميل منزلقة فى خط مائل ، بنعومة فوق خط غير مرئى ، عند حـد معين ارتفعت فجـأة ، رمت حمـولتهـا فـوق طـريق بـور تـوفيق ـ السويس ، الطريق مقلوب الحشا ، الخط الحديدى فوقه التوت قضبـانه وانفصلت لتستقر مرفوعة فى الهواء ، يد خرافية لوتها ، سلم من حبال فوق حطام سفينة عبث بها هواء غضوب ، فوقه انبطحت مرات ، رأيت الموت عفيا ، فى وجه صاحبى سعيد ، عندما رأيته أول مرة ، عرفت أنه جاءنا ليموت ، انه يمر بدنيانا مرورا عابرا سريعا ، تساءلت عندما رحل ، لماذا المجىء أصلا ؟؟ جزنت ، تذكرت الخطر الفادح ، عندما أعبر الطرق فى الاسكندرية ، أخاف لو دهستنى عربة ، من يعطيهم نقودا ؟؟ الآن رعبى

أكثر ، لا يحق لأبى صرف معـاش ، أو مكافـأة لأنك فصلتنى يـا سعادة المدير ، مع أننى قمت بعملى خير قيام ، يهمنى جداً أن يصرف . .

* * *

زجاج مغلق لا يمنع رائحة البحر من العبور ، زرقاء فيها يود وانطلاق ورحيل .

ـ سهير . .

صوته خافت هامس ، توحى النظرات وتفصح . .

ـ كنت سأتحدث اليك فى الثانية صباحا . .

ـ ياه . .

عندما رآها أول مرة ، متشامخة ، مدعمة بقرابة لا تمس ، هل تصور أنه سيقول يوما ما قاله الآن ؟؟

ـ قبل نومى شعرت برغبة عنيفة يا سهير ، أن أسمع صوتك آخر الليـل ، لكننى أمسكت نفسى ، أعـرف أى ازعـاج يمكننى أن أحـدثـه عندكم .

تداعب مفتاح الراديو ، تعلو موسيقى خافتة كأنها التردد بالبوح بسر دفين ، عيناه ترسلان معانى ناعمة كالبريانتين ، ها هى لحظات يهمس فيها

بخافت الكلام ، يدعوها الى مكان قصى ، مضاء بنعاس المصابيح ، فراغه همسات وضحكات مفاجئة تفلت من غمار نشوة ، الآن ، لا يذكر اللحظة التى ذاب فيها الجمود فى البداية ، كان قبل دخوله المكتب يقضى وقتا يعد فيه موضوعات يمكن أن يطرقها معها ، لكن مجىء الخطابات مهد الفرصة ، أتاح الطريق ، لم تنسها بعد ، لا يقرؤها الآن ، اعتاد رؤية الختم المثلث تتسلمها هى ، تضعها فى الدرج ، ربما تلقيها ، تصر على قراءتها ، لن ينسى ابدا لحظة انتهى فيها من قراءة احد الخطابات قال ضاحكا :

ــ تسمحى يا مدموازيل سهير . .

ايماءة باريسية أنيقة ، على شفتيها ابتسامة ود مقطر . .

ــ من فضلك . . سهير . . سهير بس . .

* * *

« . . تتباطأ عنى ، ولا تدرى ما يجرى لى يا سعادة المدير ، لا تعيدنى الى عملى ، شهران ولا تسمعنى ؟؟ كل يوم جديد يؤكد فصلى ، وكما تعرف فالعمل غطاء من يرتعش بردا ، أنفاس تتردد من يمنعها يختق الشهيق والزفير ، نصحنى زملائى بارسال شكاوى الى المسئولين أكدوا حقى فى ارسال شكوى الى رئاسة الجمهورية ، حتى الآن لم أفعل ، أكتب

اليك لتصلح خللا ، لترتق ثوبا انقطع ، لتصل غشاء تهتك ، لتفحص جرحا ، لتوقف نزيفا ، لتضع ملحا فى طعامى لتمد رصيفا يحمى السائرين من مركبات لا ترحم ، أكتب لتبعث الحياة فى ضوء فنار والا هلكت السفن ، لتكسو مسجدا عاريا بالحصير ، هل يصلك صوتى خافتا من هنا ؟؟ أعرف أن فصلى موضوع صغير جدا بالنسبة لمشاغلك . لكنه عندى الولادة من جديد ، النار تحت الخبز ، عملى فى الاسكندرية خندق يحمينى هنا ، دشمة لا تنفذ منها شظايا الأيام ، فكيف تفصلنى ؟؟ الغاء القرار لا يحتاج منك الا الى جرة قلم ، أقل من نقطة مداد أحمر ، كيف لا تفعل ؟؟ هل غضبت لأننى أكتب بالمداد الأحمر ، ألم أقل لك اننى فى بور توفيق ، أنبوبة الحبر الأزرق جفت وانتهت ، من أين آتى بمثلها هنا ؟؟ لابد من اتمام الخطاب ، استعملت أنبوبة اللون الأحمر ، أتراك غضبت ؟؟ لكى أطمئن نفسى ، قلت ربما سافرت الى أوروبا فى العامين الأخيرين قمتم برحلات الى الخارج لتسويق المنتجات ، فتح أسواق جديدة ، البلاد فى أمس الحاجة الى العملة الصعبة ، لكن مهما طال غيابك سترجع ، قلبى يحدثنى انك الآن فى الاسكندرية ، تذهب يوميا من التاسعة ، تجلس فى المقعد الخلفى للسيارة ، تقرأ الصحف ، فى المكتب تطلب القهوة ، بعد قليل تطلب الثانى ، كما نعرف جميعا تشرب حوالى ثلاثين فنجانا يوميا ، الفنجان ثمنه قرشان ، ستون قرشا ، ثمانية عشر جنيها شهرياً ومائة

سيجارة ، أعرف انك تشرب نوعا أجنبيا لا أذكر اسمه ، يقول العمال ان ثمن العلبة منه خمسة وثلاثون قرشاً ، خمس علب يوميا ، جنيهان الا ربعا اثنان وخمسون جنيها تقريبا فى الشهر أعرف مشاغلك الجسام ، أوقن انك فى الاسكندرية ، لكنك يا سيدى .. لا تسمعنى ..

* * *

ــ ضربنا الرقم القياسى يا حبيبى ...

ــ كم الساعة الآن ؟؟

ــ الليل على وشك الدخول فى الرابعة .. نتحدث من الواحدة ..

ــ سهير .. لن أضع السماعة ..

ــ والشغل ..

ــ ياه ..

* * *

« .. الخطاب الثالث وصلنى ، أبى قلق يا سعادة المدير ومعه حق ، الرزق خافت شحيح ، أنت أب ، تخيل انى ابنك أعرف ان ابنك يتلقى العلم فى أوربا ، طبعا الفارق بينى وبينه عريض وفادح ، فى رمضان منذ عامين أقامت الشركة افطارا ، حضرته وخطبت فيه أنت مبتدئا كلمتك ،

أبنائى العمال والموظفون ، اذن اعتبرتنى ولدك ، هل تقبل أن يتجول ابنك فى باريس بلا نقود ؟؟ هل ترضى أن تشتهى نفسه رحلة الى بلدة بعيدة مع فتاته ولا يقوم بها لقلة نقوده ؟؟ هل تعرف الراحة يا سعادة المدير ، لو علمت بتهرب ابنك من دعوة أصحابه للرقص ، لقلة ما بيده ؟؟ لكن كيف يحدث هذا ؟؟ أى قصور أصاب عقلى ؟؟ أنا لم أحلم بزيارة باريس ، أنت تجهلنى . لا تعرفنى ألم تقرأ خطاباتى ؟؟ هل سد أزيز جهاز التكييف أذنيك ؟ ألم تقرأ ما كتبت ؟؟ أنت تبتر يدا أمدها الى أبى ، مستحيل ان تعتبرنى ابنك ولو لحظة ، ابنك يرى العالم أول عمره انا لم احلم بركوب بحر أو جو ، لم أمشِ مع فتاة ترتدى جاكيت شمواه فى محطة الرمل لم أجلس الى أنثى تدهن جفنيها بلون أزرق ، انا لا أقرأ الصحف الافرنجية ، لا أجيد لغة ، تعليمى لم أتلقه فى أوربا ، او فى مدارس أجنبية ، لكن هذا لا يعنى فصلى كالنفاية يا سعادة المدير ، أنا لم أدخل الفنادق الكبيرة ، لم أحتفل بالكريسماس فى شقق بها سلالم داخلية ، أى عام جديد لا يأتى الا بالهم ، نسأل دائما ، ماذا نفعل غدا ؟؟ بأى أرض نموت ؟؟ أنا لم أتناقش مع صاحب حول المرسيدس أو الفيات ، أيهما أفضل ؟؟ يا سعادة المدير أنا لم أر اوبرا فى حياتى ، لا أرى الافلام فى دور العرض الكبيرة ، لن تعرفنى ، لكن يجب أن تسمعنى ، هل أنوح ، ليت للبراق عينا فيرى ؟؟ كيف تصغى الى ؟؟ لو جئتك سيدفعنى عنك

سكرتيرك الشاب ، انت تقيم فى بروج مشيدة ، أفق يا سعادة المدير ، لا تغمض عينيك ، ولا تسد أذنيك ، اضغط مقبضا خفيا ليمتلىء المكان بالنور ، ارم التقاوى لتنبت الأرض ، بأى حق تفضلنى ؟؟ كيف تؤذينى ؟؟ اقلب الصفحة التى تأبى مفارقتها ، أنت تقصف آمال أبى ، أنت هجوم صاعق على نهاية عمره الشقى ، أنت طيران منخفض لا تنذر انما تحرق آمال أختى ، تغير على البهجة فى عينى أمى لحظات عودتى ، أنت جنزير يدهس مرارتى ، أعددت كمينا ناجحا لم يخطىء الحياة ، تذبحنى ولا تدرى ، أفق أفق ، أفق ونجنى . . . . » .

« . . تعدو ، تعدو ، لكن إلى متى ؟؟ حتما يدركها ، ترتمى فوق الرمال الناعمة المشبعة بالشمس ، بالرخاوة ، انقلبا ليواجها سماء أغسطس ، أى متعة ، أى رغبة فى الانطلاق ، بلا توقف فوق أمواج البحر ، يحيط الخصر المبلل بذراعيه ، عيناها واسعتان ، شفتاها موطن المتعة ، أرض بكر لم تكتشف ، غرس فوقها أعلامه وألقى ترحاله ، أحيانا عند خروجه من مكتب سيادته ، يميل اليها فجأة ، بشفتيه يلمس شعرها ، تحذره . . يا مجنون يا مجنون ، أتحبنى فعلا ؟؟ يحيطها بذراعيه ، يصغى إلى سخونة الانفاس ، أطفال يلعبون بكرة حمراء ملونة ، البحر غافل ، تائه فى الافق النائى ، رائحة شواء ، بيده يكوم الرمل فوق ساقها ، يوزع الذرات فوق النعومة الملساء المبللة ، اعتدلت فجأة ، مصمصت شفتيها . .

ـ سأرجع إلى حبيبى . . إلى حبيبى البحر . .

لم يرد راديو قريب يعلو . . وإلى خطيبته منال . . إليكم جميعا « زى الهوا » .

ـ هنا فى المنتزه أعود إلى طفولتى . . ليتنى بقيت طفلة . .

يدرك الآن أطراف أصابعها ، يغطيها بالذرات الصفراء التى لا تفنى .

ـ لكن قل لى . .

لو استمر قليلا لصاحت من اللذة ، « وخدتنى ومشينا ، والفرح يضمنا » .

ـ ألم يرسل خطابات أخرى ؟؟

تقترب يده من حافة الأصابع ، تقلصها ، تبسطها من جديد « وبقيت وأنت معايا ، الدنيا ملك أيديه . . » .

الشمس رأس بلا جسد فى سماء متوهجة .

ـ ياه . . أما زلت تذكرينه . .

ـ توقعت حضوره فى أى وقت . .

ـ من ؟؟

« وآه من الهوا يا حبيبى آه من الهوا » .

ـ هذا الشاب المفصول .

ـ اى . . آى . . أنت تنسى دائما . .

« طلبها أيضا الاخ نصر وعروسه عايدة » .

ـ آه . . ربما أفاق . . غلبه العقل . . هل كان فى . .

ـ بور توفيق . . كان يذكرها دائما .

« وإلى رباب مع أجمل التهانى بالخطوبة » .

ـ بور توفيق . . يا ستى . . ربما . .

ـ إى ، إى ، إى ، لا يا سامى . . إى . . سامى . .

ضحك ، ضحك . يده مستمرة فى دغدغة باطن قدميها .

« زى الهوا . . آه يا حبيبى زى الهوا » .

ــ اسكت يا روحى . . سامى . . الله . . إى . . إى . .

قامت تعدو . .

« آه . . زى الهوا . . » .